كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

التغاير القرائي
وأثره في تأسيس صور الالتفات
في القرآن الكريم

" دراسة بلاغية تحليلية"

إعداد

د/ أحمد محمود محمد الجبالي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية ـ بنات ـ كفر الشيخ ـ جامعة الأزهر

(العدد التاسع والثلاثون)

(الإصدار الأول ـ الجزء الأول)

(١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م)

التغاير القرائي وأثره في تأسيس صور الالتفات في القرآن الكريم
" دراسة بلاغية تحليلية "

أحمد محمود محمد الجبالي
قسم البلاغة والنقد – كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بكفر الشيخ – جامعة الأزهر مصر.
البريد الإلكتروني : ahmed. elgbaly@azhar.edu.eg

الملخص :
المراد بالتوجيه البلاغي للتغاير القرائي الإشارة إلى الوجوه البلاغية المترتبة على تغاير القراءات واختلافها، وتلمس دورها في إثراء بلاغة القرآن الكريم بوصفها وجهاً من وجوه إعجازه، ومن ثم تبارى المفسرون في تناول التغاير القرائي في تفاسيرهم واقفين على صورها، ودلالتها، ووجوه بلاغتها على أنها وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، ومما تجدر الإشارة إليه أن الالتفات وقع كثيراً في القرآن الكريم في معرض التغاير القرائي كثرة يمكن معها أن تخص بدراسة مستقلة، ومن ثم جاءت تلك الدراسة بعنوان: "التغاير القرائي وأثره في تأسيس صور الالتفات في القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية" ، وقد اشتمل البحث على مقدمة تضمنت أهمية الموضوع ، والدوافع لاختياره، وتمهيد : اشتمل على مفهوم التغاير القرائي ، ومفهوم الالتفات وقيمته في كلام العربية ، والحديث عن التغاير القرائي وعلاقته بالدرس البلاغي، وأما صلب البحث فقد اشتمل على صور الالتفات وبلاغتها في التغاير القرائي للقرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية، ثم جاءت الخاتمة مشتملة على بعض نتائج البحث وبعض التوصيات

الكلمات المفتاحية : التغاير القرائي – أثر – الالتفات – القرآن الكريم

the Reading change and its effect on establishing images of paying attention to the Holy Qur’an: An Analytical Rhetorical Study

Ahmed Mahmoud Mohamed ELgbaly
Department of Division of rhetoric and criticism ' the department of Arabic language - College of Islamic and Arab Studies for Girls - Al Azhar university - Kafr El-Sheikh - Egypt.

Abstract :

For what is meant by the rhetorical guidance of reading variation: "To point out the rhetorical faces resulting from the variation of readings and their differences, and touch its role in enriching the rhetoric of the Holy Qur’an as a facet of its miracle, and then the interpreters converged on dealing with reading variation in their interpretations, and they stand in its images, significance, and aspects of its rhetoric as One of the aspects of the miraculousness of the Holy Qur’an, and it is worth noting that attention has occurred a lot in the Holy Qur’an in the exhibition of reading variation, with which it can be related to an independent study, and then this study came under the title: “Reading variation and its effect on establishing images of attention in the Holy Quran An analytical rhetoric. ”The research included an introduction that included the importance of the topic, the motives for choosing it, and a prelude: it included the concept of reading variation, the concept of attention and its value in the words of Arabic, talk about reading contrast and its relationship to rhetorical lesson, and as for the essence of the research it included pictures of attention and its rhetoric in variation The reader of the Holy Qur’an is an analytical rhetorical study, then the epilogue came with some research results and some recommendations .

Keywords : the Reading change - effect - paying attention - the Holy Qur’an

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله على أن بين للمستهدين معالم مراده، ونصب لجحافل المستفتحين أعلام أمداده، فأنزل القرآن قانونا عاما معصوما، وأعجز بعجائبه الثقلين، والصلاة والسلام على سيد كل عالم وتقي ، وإمام كل رسول ونبي ، وبعد

فإن القرآن الكريم مصدر كل علم، وأساس كل فن، فلم يزل عطاؤه ممتدا ، وغرائبه ليس لمكنونها حد ، ينهل منه كل طالب، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنتهي عجائبه، فكلما وردته طلبا زادك عطاء لا ينقطع، وفلاحا لا يوصف، وسعادة لا تبارى، فكان وجهة عقول العلماء، وموقع قلوب البلغاء، فولوا وجوههم شطر أفيائه وركزوا اهتمامهم نحو أفنانه يقطفون ثمارا لا تعطب، ويهتدون إلى أسرار لا تنقطع، فسمحت لهم الوقوف في ظلاله، والعيش مع آياته تفسيرا وتحليلا، دراية وتأويلا .

وقد ظهر بين الصحابة اختلاف في قراءة القرآن الكريم والنبي ﷺ - لا يزال بين ظهرانيهم، وقد أقر قراءة كل منهم مع اختلافها، بل أمرهم بقراءة ما تعلموه،[1]، فانتشرت القراءات بانتشار الصحابة في الأمصار وهم يحملون القرآن الكريم مكنونا في الصدور، أو مكتوبا في السطور على ما اتفق عليه في عهد

(١) عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ ﷺ، حَدَّثَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ فَرَاجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُنِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ» [صحيح البخاري المسمى : الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي- كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ – بَابُ أُنْزِلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ حديث رقم (٤٩٩١) المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر- ط: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ .

عثمان بن عفان ﷺ وإقراره للناس، وقد تتبع العلماء مظاهر الاختلاف بين القراءات القرآنية، وتنوعت علومها، وتعددت الدراسة فيها، ما بين توظيفها كنوع من أنواع تفسير القرآن بالقرآن نفسه ، فكانت القراءات المفسرة، أو ما يسمى بالتفسير القرائي، أو دراسة تاريخ القراءات وتتبع مراحلها، وبيان أن اختلاف القراءات يتفرع منه اختلاف في الأحكام وفائدة ذلك في أبواب التشريع والفرائض، وكذا دراسة خصائص تلك القراءات القرآنية وفائدتها في إثبات اللهجات اللغوية ودورها الدلالي في توجيه المعاني، ناهيك عن توجيهها البلاغي وأثره في أداء المعنى وتنوعه في آي الذكر الحكيم ٠

والمراد بالتوجيه البلاغي للتغاير القرائي: "الإشارة إلى الوجوه البلاغية المترتبة على تغاير القراءات واختلافها، وتلمس دورها في إثراء بلاغة القرآن الكريم بوصفها وجها من وجوه إعجازه[1] ومن ثم تبارى المفسرون في تناول التغاير القرائي واقفين على صورها، ودلالتها، ووجوه بلاغتها على أنها وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الالتفات وقع كثيرا في القرآن الكريم في معرض التغاير القرائي كثرة يمكن معها أن تخص بدراسة مستقلة واضعا في الاعتبار طبيعة ذلك النوع من البحوث العلمية من مجيئها على كيفية معينة ، ومقدار يناسب تلك الكيفية ،ومن ثم جاءت تلك الدراسة بعنوان : "التغاير القرائي وأثره في تأسيس صور الالتفات في القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية"

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة وتمهيد وصلب البحث وخاتمة ، وفهارس فنية متنوعة ٠

(١) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ـ دكتور /أحمد سعد محمد : صـ ٣٠ ط مكتبة الآداب الثانية ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م ٠

أما المقدمة : فضمنت أهمية الموضوع ، والدوافع لاختياره .

وأما التمهيد: فقد اشتمل على مفهوم التغاير القرائي ، كما اشتمل على مفهوم الالتفات وقيمته في كلام العربية ، والحديث عن التغاير القرائي وعلاقته بالدرس البلاغي.

وأما صلب البحث فقد اشتمل على صور الالتفات وبلاغتها في التغاير القرائي للقرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية، وجاءت كالتالي :

الصورة الأولى : صورة الالتفات من التكلم إلى الغيبة

الصورة الثانية : صورة الالتفات من الغيبة إلى التكلم

الصورة الثالثة : صورة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة

الصورة الرابعة : صورة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب .

ثم جاءت الخاتمة مشتملة على بعض نتائج البحث وبعض التوصيات ، ثم جاءت الفهارس الفنية العامة .

وبعد ... فإن كنت قد وفقت فيما قصدت إليه فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإذا كانت الأخرى، فحسبي ما صاغه أولو الفهم في قولهم :" لو كتب الإنسان بالأمس كتابا، وأعاد النظر فيه لقال: لو حذفت هذا لكان أحسن ، وأضفت ذاك لكان أفضل، وهذا من أكبر العبر، وأدل على استيلاء النقص على جملة البشر[1].، وإنني بهذه الدراسة أكون قد حاولت أن أقتبس من هذا النور، . وإن بدا

(١) تلك مقولة نسبت بالخطأ لعماد الأصفهاني والصواب أنها لعبد الرحيم البيساني في رسالة إلى العماد الأصفهاني معتذرا عن كلام استدركه عليه[ينظر:أبجد العلوم–أبو الطيب محمد صديق

لي التقصير. فحسبي أني قد عزمت بلوغ الأماني، والنية تعظم العمل، ومن كتب قبلي فكمل؟! .

فالله أسأل أن أكون من المخلصين، وأن يغفر لي كل تقصير، والحمد لله رب العالمين ،،،

خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي : صـ ٥٢ الناشر: دار ابن حزم الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢ م]

تمهيد

أولا : المقصود بالتغاير القرائي :

في اللغة : من غَيَّرَ الشيء: حوله وبدله وجعله غير ما كان[١].

وفي الاصطلاح : من التغيير: هو إحداث شيء لم يكن قبله ،والتغير: انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى. [٢].

أما القراءات في اللغة : فهي جمع قراءة ، وهي مصدر للفعل قرأ يقرأ قراءة وقرآنا، أي جمعه، وضم بعضه إلى بعض،[٣]

وأما في الاصطلاح : فقد اختلفت عبارات العلماء في تعريفها، وإن كتب المتقدمين لم تعتن بوضع تعريف واضح للقراءات، ولعل السبب في ذلك يعود إلى شهرتها، وانتشار تعليمها : رواية ودراية ، بحيث لم يحوجهم ذلك لوضع تعريف لها شأنها شأن العلوم الأخرى، من قبيل المعروف لا يعرف، وإنما ظهرت التعريفات والتقسيمات، ووضع حدود للمصطلحات عند العلماء المتأخرين في مؤلفاتهم، وكثرت التعريفات وتنوعت، ولعل أكثر التعريفات دقة وضبطا، وأشهرها تداولا بين

---

(١) معجم متن اللغة – : أحمد رضا – مادة (غ ي ر) – الناشر: دار مكتبة الحياة – بيروت عام النشر: ١٣٨٠ هـ.

(٢) التعريفات– علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني :صـ ٦٣ المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر– الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان– الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م

(٣) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري – تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار ، دار العلم للملايين – الرابعة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م (مادة قرأ) .

أهل هذا الفن هو تعريف المحقق ابن الجزري (ت٨٣٣هـ) حيث عرفها بأنها : " علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة "[١].

وعند الزركشي: اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل، فالقرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان[٢]، "وكل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم[٣]، وأشار إلي ذلك في طيبة النشر بقوله: [٤]

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ وَكَانَ لِلرَّسْمِ احْتِمَالاً يَحْوِي
وَصَحَّ إِسْناداً هُوَ الْقُرآنُ فَهَذِهِ الثَّلاثَةُ الأَرْكَانُ
وحَيثُمَا يَخْتَلُّ رُكْنٌ أَثْبِتِ شُذُوذَهُ لَوْ أَنَّهُ فِي السَّبعَةِ

(١) منجد المقرئين ومرشد الطالبين : شمس الدين أبو الخير الجزري : صـ ١٨ ط دار الكتب العلمية – الأولى : ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

(٢) البرهان في علوم القرآن –محمد بن عبد الله الزركشي :٣١٨/١ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط: دار إحياء الكتب العربية –١٣٧٦هـ ١٩٥٧م .

(٣) النشر في القراءات العشر – شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، : ٩/١– المحقق : علي محمد الضباع – المطبعة: التجارية الكبرى .

(٤) مـتْنُ «طَيِّبَـةِ النَّشْـرِ» فِـي الْقِـرَاءَاتِ الْعَشْـرِ– ابـن الجـزري، ص ٣٣، المحقـق: محمـد تمـيم الزغبي– الناشر: دار الهدى، جدة – الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م.

فالمراد بالتغاير تلك الأوجه القرائية الصحيحة التي قرأ بها الصحابة على اختلافها في قراءة القرآن الكريم والنبي ﷺ لا يزال بين ظهرانيهم، وقد أقر قراءة كل منهم مع وجود هذا الاختلاف(١)، بل أمر القراء في مختلف الأمصار بالأخذ بها – مع اختلافها – ، تخفيفاً وتوسعة من الله تعالى عليهم ، ولم يحملهم على تعلم نطق لغة قريش ـ التي نزل بها القرآن ـ لقراءة القرآن بها، وإنما أذن وأباح لهم بقراءة القرآن بوجوه من النطق التي ألفوها، والتي لا تضاد في بالمعني بها ولا تباين.

وكل قراءة اجتمع فيها شروط قبولها عند عامة المسلمين وخاصتهم لا ينبغي أن نقول فيها إن تلك القراءة أبلغ من غيرها، ولا نحكم على قراءة بأنها أوضح في الدلالة من غيرها، وأبلغ مقاما من الأخرى، لأنها من جملة القرآن الكريم ، والذي حكم علماء البيان على أن جميع آياته في درجة واحدة من البلاغة ، وفي المرتبة العليا من الفصاحة والبيان ، وأنه أبلغ كلام عرفته البشر ، وعجزت عن مضاهاته، أو الإتيان بأقل سورة من مثله أرباب الفصاحة ، وملوك البيان .

ثانيا : مفهوم الالتفات وبلاغته :

(١)عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ، فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلاَةِ، فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ: كَذَبْتَ، أَقْرَأَنِيهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَرَأْتَ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا، فَقَالَ: «أَرْسِلْهُ، اقْرَأْ يَا هِشَامُ»، فَقَرَأَ القِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «اقْرَأْ يَا عُمَرُ»، فَقَرَأْتُ الَّتِي أَقْرَأَنِي، فَقَالَ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ» [صحيح البخاري – كتاب التوحيد– بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ} حديث رقم (٧٥٥٠) .

في اللغة : دار مفهوم الالتفات في كتب اللغة والمعاجم حول : تقليب الوجه و تحويله عن جهته الأصلية، يقال: لفت: لَفَتَ وجهَه عَنِ الْقَوْمِ: صَرَفَه، والْتَفَتَ التِفاتاً، والتَّلَفُّتُ أَكثرُ مِنْهُ. وتَلَفَّتَ إِلى الشَّيْءِ والْتَفَتَ إِليه: صَرَفَ وجْهَه إِليه،والالتفات: مَعْرُوف وَأَصله لي الْعُنُق[1].

أما في الاصطلاح البلاغي فالمشهور عند جمهور البلاغيين: أنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها [2]، وذلك على خلاف ما يقتضيه الظاهر، ويترقبه السامع، ولابد من هذا القيد عند الجمهور، وعلى هذا فإن صور الالتفات عند جمهور البلاغيين ست: الصورة الأولى: الانتقال من التكلّم إلى الخطاب،وكذا الابتداء بالخطاب، مع أنّ مقتضى الظاهر يستدعي التكلم أو الْغَيْبَة، وأما الصورة الثانية: الانتقال من التكلُّم إلى الغيبة، وكذا الابتداء بالْغَيْبة مع أنّ مقتضى الظاهر يستدعي التكلّم أو الخطاب، وأما الصورة الثالثة: الانتقال من الخطاب إلى التكلّم، وكذا الابتداءُ بالتكلّم مع أنّ مقتضى الظاهر يستدعي الخطاب أو الْغَيْبَة، وأما الصورة الرابعة : الانتقال من الخطاب إلى الْغَيْبة، وأما الصورة الخامسة: الانتقال من الْغَيْبة إلى التكلّم، وأما الصورة السادسة: الانتقال من الْغَيْبة إلى الخطاب"٣"، ومعنى هذا أن الالتفات لا يتحقق إلا بشرطين: الأول: أن يكون في الكلام تعبيران، والثاني: أن يكون التعبير الثاني على خلاف مقتضى الظاهر من الكلام، ولو كان موافقا لظاهر المقام، إذ إن المعول

(١) لسان العرب ، ابن منظور مادة : (لفت) ط: دار صادر– بيروت: الثالثة– ١٤١٤ هـ.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ، جلال الدين الخطيب القزويني ،:٢ / ٨٦ تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ط : دار الجيل – بيروت : الثالثة .

(٣) البلاغة العربية:عبد الرحمن حَبَنَّكَة: ١ / ٤٨٥ط : دار القلم،دمشق، الدار الشامية بيروت:الأولى ١٤١٦ هـ١٩٩٦م .

عليه في باب الالتفات عند جمهور البلاغيين هو مقتضى ظاهر الكلام لا ظاهر المقام، وعلى ذلك . أيضا . لا يقع الالتفات ابتداء في الكلام بل لابد من تعبير يسبقه حتى ينتقل منه إلى آخر.

وأما الإمام السكاكي فإنه لا يلزم فيه الانتقال عن تعبير سابق بل يشمل كل ما عدل فيه عن مقتضى الظاهر ، وجاء على خلافه سواء سبق بغيره أو لم يسبق ، فيقول : "واعلم أن هذا النوع: أعني نقل الكلام عن الحكاية على الغيبة لا يختص المسند إليه ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها على الآخر ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء علم المعاني" [(١)]، فالالتفات عنده أعم؛ لأن النقل عنده أعم من أن يكون قد عبر عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها، فعدل إلى الآخر، وعند الجمهور مختص بالأول، فكل التفات عند الجمهور يعد التفاتا عند السكاكي لا العكس. [(٢)]

وظاهر الكلام أنه لم يضع تعريفا محددا للالتفات وإنما أشار إلى صورته عنده، وأنه غير مختص بالمسند إليه ولا النقل مطلقا مختص بهذا القدر، فيمكن وقوع الالتفات في الكلام ابتداء، دون أن يسبقه طريق من الطرق الثلاثة .

والحق أن الزمخشري هو الأصل في هذا المذهب وارتضاه أبو يعقوب يوسف السكاكي ، حتى نسب إليه وبه اشتهر بين العلماء، وهو فن من البلاغة، ملاكه الذوق السليم، والوجدان الصادق، من أجل علوم البلاغة وهو أمير جنودها، والواسطة في قلائدها وعقودها، وسمى بذلك أخذا له من التفات الإنسان يمينا وشمالا، فتارة يقبل بوجهه وتارة كذا، وتارة كذا، فهكذا حال هذا النوع من علم

(١) مفتاح العلوم : يوسف بن أبي بكر السكاكي: ص ١٩٩ ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور،ط: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان : الثانية، ١٤٠٧ هـ١٩٨٧م

(٢) المطول : سعد الدين التفتازاني : صـ ١٣٢ طبعة : أحمد كامل ١٣٣٠هـ .

المعاني، فإنه في الكلام ينتقل من صيغة إلى صيغة، ومن خطاب إلى غيبة، ومن غيبة إلى خطاب إلى غير ذلك من أنواع الالتفات [١].

فأسلوب الالتفات أحد المسالك التعبيرية، أو الألوان البلاغية التي يشيع استخدامها في الأساليب العربية عامة، والقرآن الكريم خاصة، بل لعله أكثر الألوان ترديدا، وأوسعها انتشارا في ذلك البيان الخالد[٢]، وقد سماه ابن جني" شجاعة العربية"[٣]؛ لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة وكان معدودا عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال. " [٤]

وجعل صاحب المثل السائر"هذا النوع وما يليه توكيد الضميرين، هو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن،وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنعن، وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأنه ينتقل فيه عن صيغة، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصلا، يسمى أيضًا "شجاعة العربية"، وإنما سمي بذلك؛ لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة العلويّ : ٢ / ٧١، طبعة: المكتبة العنصرية – بيروت : الأولى، ١٤٢٣ هـ

(٢) أسلوب الالتفات في البلاغة العربية د حسن طبل : ٥٥ : دار المعارف

(٣) الخصائص لابن جني ٣٦٢/٢ ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب: الرابعة

(٤) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن عاشور: ٢ / ٢٧ الناشر: الدار التونسية للنشر تونس ١٩٨٤ هـ.

الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات".[١]

ومعنى هذا أن البلاغيين قد تنبهوا إلى أسلوب الالتفات منذ زمن بعيد، بيد أن أحدا منهم لم ينبه إلى قيمته البلاغية بالطريقة المفصلة الواضحة، ويكشف أسراره وسماته التي تؤثر في النفوس، وتعمل في العقول، حتى وصلنا إلى القرن السادس الهجري وجاء الإمام الزمخشري (ت٥٦٨هـ) في تفسيره المعروف بـ " الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل" [٢]، فوقف على بلاغة الأسلوب، وأظهر قيمته الفنية، وسماته البلاغية، وقد حاول ابن الأثير أن يغمضه هذا الحق، فذكر بعض كلامه، وناقشه فيه، ورفضه، ولكنه لم يلبث أن رجع إليه، فأخذ منه تحليلاته الفنية الفذة.[٣]

وظل المفسرون بعد الزمخشري يسيرون على منهجه في التفسير، والوقوف على التوجيه البلاغي للمسائل البلاغية بصفة عامة ، ومسائل الالتفات وصوره بصفة خاصة مما عرف بين أوساط المفسرين بالتفسير البلاغي ، أو المنهج البلاغي في التفسير، والذي يُعْنَى بالإشارة إلى الوجوه البلاغية في النص القرآني المعجز ، وما ترتب عليه من معان لم تكن تظهر من خلال النظرة العامة للأسلوب دون الوقوف على بلاغته ، التي هي أحد وجوه إعجازه .

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، :٢ /١٣٥ ت : أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، ط: دار نهضة مصر للطباعة ، الفجالة ـ القاهرة

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ،: أبو القاسم محمود بن عمرو ، الزمخشري جار الله ط : دار الكتاب العربي بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د / محمد محمد أبوموسى : ٣٤٣ ، ٦٦٨ ، مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية .

وقد وقف المفسرون على حالة من حالات صورة الالتفات في القرآن الكريم وذلك حين يكون التغاير القرائي لآيات الذكر الحكيم سببا في بناء صوره، وقاموا على عرضها في ثنايا تفاسيرهم، مبينين صورة الالتفات فيها، والمعنى المتولد منها، بيد أنهم لم يقفوا على بلاغتها أو دراستها دراسة تحليلية، وقد غلب أن يترتب الالتفات في باب القراءات على تلك الأوجه التي تتغاير قراءتها بين أحرف المضارعة (النون والتاء والياء)، وهي أحرف تشير بحسب الإسناد إلى معاني (التكلم والخطاب والغيبة) على الترتيب ، فكان ثمة مواضع يُقرأ فعلاها تارة بالنون معا جريا على مقتضى الظاهر ، كما يُقرأ أولهما بالنون ، والآخر بالياء تارة أخرى ، فيكون ذلك صرفا للكلام على نسقه ، ووجهه على سبيل الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، وثمة مواضع أخرى يُقرأ فعلاها تارة بالياء معا ، كما يُقرأ أولهما بالياء والآخر بالتاء تارة أخرى، فيترتب على ذلك التفات من الغيبة إلى الخطاب٠٠٠وقلَّ أن يترتب الالتفات في القراءات القرآنية على غير هذه الأوجه القرائية [١] ولم تذكر (الهمزة) وهي رابع ثلاثة لحروف المضارعة لكون الالتفات من التكلم إلى الخطاب أو الغيبة يمكن وقوعه بضمير الفصل (أنا، نحن)، أو أن النون تقوم مقام الهمزة في التكلم (كنون العظمة) ، ولقد كان للقراءات القرآنية أثرها الواضح في رسم صور الالتفات وتنوع روافده، فنظرة متأنية في كتب التفاسير ترينا براعة المفسرين، وتبرزهم في باب القراءات وتوجيهها بلاغيا لاسيما فيما يتعلق بالصور المتولدة من اختلاف القراءات وتعددها ، فنجدهم يهتمون بهذا المقصد الجليل، فعني باتساق الحروف، واختلاف القراء بما يخدم المعنى وينشط ذهن السامع ، وهذا كثير منتشر في تفاسيرهم، بيد أن تلك المواطن لم تشمل صور الالتفات الست، وإنما أربع منها فقط وهي كما يلي :

(١) ينظر : التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية : صـ ٣٣٢ .

الصورة الأولى : الالتفات من التكلم إلى الغيبة .

الصورة الثانية : الالتفات من الغيبة إلى التكلم .

الصورة الثالثة : الالتفات من الخطاب إلى الغيبة

الصورة الرابعة : الالتفات من الغيبة إلى الخطاب .

أما صورتا الالتفات من التكلم إلى الخطاب ، والالتفات من الخطاب إلى التكلم فلم تكن موجودة ضمن صور الالتفات في باب التغاير القرائي .

وإليك بيان ذلك بشيء من التفصيل والتوضيح.

المبحث الأول

الالتفات من التكلم إلى الغيبة

وحده : التعبير عن المعنى بطريق التكلم أولا، ثم العدول عنه إلى طريق الغيبة سواء عن طريق التعبير بالضمير أو بالاسم الظاهر القائم مقام الغيبة،(١) ووجهه:" أن يفهم السامع أن هذا نمط المتكلم وقصده من السامع حضر أو غاب(٢)، وأنه فى كلامه ليس ممن يتلون ويتوجه فيكون فى المضمر ونحوه ذا لونين، وأراد بالانتقال إلى الغيبة الإبقاء على المخاطب، فالغيبة أروح له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ (٣)حيث لم يقل «لنا» تحريضا على فعل الصلاة لحق الربوبية. (٤).

ويمكن القول بأن مواضع الالتفات من التكلم إلى الغيبة في القراءات القرآنية في القرآن الكريم ، قليلة الوجود إذا ما قيست بالصور الأخرى، ومع وصفها بهذا إلا أن مثلها لم تأخذ صورة التحليل البلاغي، وإنما اكتفي المفسرون . بصفة عامة . بإظهار موضع الالتفات دون ذكر بلاغته، أو فائدته في الكلام ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا

---

(١) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني – محمد بن عرفة الدسوقي: صـ ٤٢٦– المحقق: عبد الحميد هنداوي– الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.

(٢) البرهان في علوم القرآن : لبدر الدين الزركشي : ٣ / ٣١٦

(٣) سورة : الكوثر: آية : ١، ٢ .

(٤) أساليب بلاغية، الفصاحة – البلاغة – المعاني : أحمد مطلوب أحمد الناصري الصيادي الرفاعي :٢٨٠– الناشر: وكالة المطبوعات الكويت الأولى، ١٩٨٠ م.

كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

قرأ الجمهور : (فنوفيهم) بالنون، وقرأه حفص عن عاصم، (فيوفيهم) بياء الغائب"[2]"على الالتفات، فمرجع الضمير في كلا القراءتين واحد، والمعنى واحد في الياء والنون، الله هو المـوَفِّي للأجُور، لا شريك لـه"[3]"، غير أن قراءة ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ بالياء جاءت على خلاف مقتضى الظاهر والخروج بالكلام من حال التكلم في قوله: ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ وقوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ في الآية قبلها، إلى حديث الغائب في قوله :﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يأتي الكلام في صورة التكلم، كما في قراءة ﴿فَنُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾، والسر في العدول عن طريق التكلم إلى الغائب لإظهار الفرق بين

(١) سورة آل عمران : آية : ٥٥ ـ ٥٧

(٢) كتاب السبعة في القراءات: أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي ٢٠٦ تحقيق: شوقي ضيف : دار المعارف – مصر: الثانية، ١٤٠٠هـ ، وحجة القراءات: عبد الرحمن بن محمد، أبو زرعة ابن زنجلة : ١٦٤، محقق الكتاب ومعلق حواشيه: سعيد الأفغاني ، ط : الناشر: دار الرسالة.

(٣) معاني القراءات : محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور الأزهري : ١/ ٢٥٩ ط : مركز البحوث في كلية الآداب – جامعة الملك سعود المملكة العربية السعودية: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩١ م، و إعراب القرآن : أبو جعفر النَّحَّاس المرادي النحوي : ١ / ١٦٢وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم ، طبعة : ، دار الكتب العلمية، بيروت : الأولى، ١٤٢١ هـ

الفريقين في الجزاء من حيث العقاب للأول والثواب الموفى للثاني، وتغاير القراءتين إيذانا بما بينهما من اختلاف، فشتان بين جمال الإيمان مع العمل الصالح وما له من ثواب مُوَفًّى من رب العباد، وبين قبح الكفر، وما ينتظر صاحبه من عذاب شديد في الدنيا والآخرة، قال أبو السعود:"﴿ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ ﴾ أي يعطيهم إياها كاملة والالتفات إلى الغَيبة للإيذان بما بين مصدري التعذيبِ والإثابةِ من الاختلاف من حيث الجلال والجمال""[1]، أو أنه "علق التوفية على الإيمان والعمل الصالح ولم يعلق العذاب بسوى الكفر تنبيها على درجة الكمال في الإيمان ودعاء إليها وإيذانا بعظم قبح الكفر، وقرأ حفص، ﴿ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ ﴾ بياء الغيبة، وقرأ الباقون بالنون جريا على سنن العظمة والكبرياء، ووجه الالتفات إلى الغيبة على القراءة الأولى الإيذان بأن توفية الأجر مما لا يقتضي لها نصب نفس لأنها من آثار الرحمة الواسعة ولا كذلك العذاب""[2]"، وهو ما ذهب إليه أبو حيان في قوله: "بدأ أولا بقسم الكفار، لأن ما قبله من ذكر حكمه تعالى بينهم هو على سبيل التهديد والوعيد للكفار، والإخبار بجزائهم، فناسبت البداءة بهم، ولأنهم أقرب في الذكر بقوله: ﴿ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ وبكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعيسى ورامو قتله، ثم أتى ثانيا بذكر المؤمنين، وعلق هناك العذاب على مجرد الكفر، وهنا علق

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى : ٢ / ٤٥ ، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، وينظر : روح البيان : إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولى أبو الفداء ،٢ / ٤٢ ، ط: دار الفكر – بيروت.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي : ٢ / ١٧٧ ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت : الأولى، ١٤١٥ هـ .

توفية الأجر على الإيمان وعمل الصالحات تنبيها على درجة الكمال في الإيمان، ودعاء إليها، والتوفية: دفع الشيء وافيا من غير نقص، والأجور: ثواب الأعمال، شبهه بالعامل الذي يوفى أجره عند تمام عمله. وتوفية الأجور هي: قسم المنازل في الجنة بحسب الأعمال على ما رتبها تعالى، وفي الآية قبلها قال: فأعذبهم أسند الفعل إلى ضمير المتكلم وحده، وذلك ليطابق قوله: فأحكم بينكم وفي هذه الآية قال:﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بالياء، وذلك على سبيل الالتفات والخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة". (١).

ولعل السر في هذا الالتفات ـ مع ما ذكر ـ هو التوطئة لذكر لفظ الجلالة الواقع في صدر فاصلة الآية لما في التعبير به ظاهرا من معاني الجلال والكمال، وهو مناسب لما عليه جزاء الكافرين من العذاب الشديد الدائم في الدنيا والآخرة، كما أن في لفظ الجلالة ﴿الله﴾ من معاني الجمال ما يجعله مناسبا وحال الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وجزاؤهم بالثواب العظيم المُوفَّى من قبل رب العالمين، فسبحانه ملك ،فقدر، فحكم، فعدل بين الجانبين قال صاحب حجة القراءات : " قرأ حفص ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ بالياء أي فيوفيهم الله وحجته قوله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، وقرأ الباقون ﴿فَنُوَفِّيهِمْ﴾ بالنون الله جل وعز أخبر عن نفسه وحجتهم قوله ﴿كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ولم يقل فيعذبهم"[٢]، وقراءة الباقين بالنون ﴿فَنُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ جارية على مقتضى الظاهر من اتساق النظم وهو طريقة التكلم " ولكن جاء هناك بالمتكلم وحده، وهنا بالمتكلم وحده المعظم نفسه؛ اعتناء

(١) البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن حيان الأندلسي: ٣ / ١٨١ ، تحقيق: صدقي محمد جميل ، ط: دار الفكر – بيروت : ١٤٢٠ هـ.

(٢) حجة القراءات :عبد الرحمن محمد أبو زرعة : ١٦٤ .

بالمؤمنين، ورفعا من شأنهم؛ لما كانوا معظمين عنده ""[1]"، وقراءة الجمهور: ﴿فَنُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ بالنون الدالة على المتكلم المعظم شأنه، ولم يأت بالهمزة كما في نسق الآية " ليخالف في الإخبار بين النسبة الإسنادية فيما يفعله بالكافر وبالمؤمن، كما خالف في الفعل، ولأن المؤمن العامل للصالحات عظيم عند الله، فناسبه الإخبار عن المجازي بنون العظمة" .[2]

ومما تجدر الإشارة إليه أن الالتفات قد وقع في كلا القراءتين في هذا التغاير القرائي فقراءة حفص ورويس بالياء {فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ} كان الالتفات فيها من طريقة التكلم إلى طريقة الغيبة ، أما قراءة الجمهور بضمير المتكلم المعظم نفسه ﴿فَنُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ الجارية على مقتضى الظاهر من اتساق النظم وهو طريقة التكلم فإنه وقع بينها وبين قوله تعالى في ختام الآية ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التفات من طريقة التكلم إلى طريقة الغيبة لما في التعبير بلفظ الجلالة من معان لم تكن موجودة فيما لو جاء الكلام على سياق نظمه ، لما في لفظ الجلالة من معنى الجلال وكل صفات الكمال، " فإضافة لفظ الجلالة ﴿الله﴾ ظاهرا تأسيسا لمعنى العظمة والمهابة في نفوس الفريقين؛ فينكس الظالمون على عقبهم حسرة وندامة ويهنأ المؤمنون العاملون للصالحات بفضل الله عليهم، وعطائه الدائم الذي لا ينقطع في الدنيا والآخرة.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب : أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي: ٥ / ٢٧٣ ،تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان : الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م.

(٢) البحر المحيط في التفسير: ٣ / ١٨١ .

والجمل التفصيلية في قوله :﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾"يعد تفسيرا للحكم في قوله ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ وتفصيلا له، وقوله ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ في نهاية الآيات تذييل لتقرير المعنى ، والتأكيد عليه، والمعنى: لا يرحم الظالمين، ولا يثني عليهم بالجميل. [1]

. ومما هو من الالتفات من التكلم إلى الغيبة قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾[2]

قَرَأَ الْجُمْهُورُ ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ﴾ بِنُونِ الْعَظَمَةِ وَبِكَسْرِ الرَّاءِ، وَقَرَأَهُ يَعْقُوبُ بِيَاءِ الْغَيْبَةِ وَكَسْرِ الرَّاءِ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى اللَّهِ الْمَعْلُومِ مِنَ الْمَقَامِ، وَهُوَ الْتِفَاتٌ. وَقَرَأَهُ أَبُو جَعْفَرٍ بِيَاءِ الْغَيْبَةِ فِي أَوَّلِهِ[3] مَبْنِيًّا لِلنَّائِبِ عَلَى أَنَّ لَهُ نَائِبَ فَاعِلٍ وكِتاباً مَنْصُوبًا عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ وَذَلِكَ جَائِزٌ[4]، قال الزمخشري:" هو من قولك: طار له سهم، إذا خرج، يعنى: ألزمناه ما طار من عمله. والمعنى أنّ عمله لازم له لزوم القلادة أو

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير – شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي : ١/ ٢٢١ – الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة – ١٢٨٥ هـ

(٢) سورة الإسراء : آية : ١٣ .

(٣) السبعة في القراءات : ٣٧٨ ،النشر في القراءات العشر: ٢ / ٣٠٦ ، إتحاف فضلاء البشر:٣٥٦ ، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدُّرة – القراءاتُ الشاذةُ وتوجيهها من لغة العرب: عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي:١٨٤ ، ط : دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان

(٤) التحرير والتنوير : ١٥/ ٤٨

الغل لا يفك عنه، ومنه مثل العرب: تقلدها طوق الحمامة، وقولهم: الموت في الرقاب، وهذا ربقة في رقبته، عن الحسن: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدتها في عنقك: وقرئ (فِي عُنْقِهِ) بسكون النون، وقرئ (نُخْرِجُ) بالنون، و(يُخْرِجُ) بالياء، والضمير لله عز وجل [1]، وعليه فمرجع الضميرين في كلتا القراءتين واحد ، وتكون قراءة يعقوب ﴿وَيُخْرِجُ لَهُ ﴾ انتقال بالأسلوب من طريقة التكلم في قوله ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ إلى طريقة الغيبة خلافا لمقتضى الظاهر.

ولعل السر في هذا العدول هو الانتقال من التعبير بصيغة الماضي المؤذنة أن الإلزام المسند إلى ضمير التكلم في قوله ﴿ أَلْزَمْنَٰهُ ﴾ كان في دار الدنيا، "وعنى بقوله ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾: اقرأ كتاب عملك الذي عملته في الدنيا، الذي كان كاتبانا يكتبانه، ونحصيه عليك [2]، ثم انتقل بالأسلوب إلى صيغة المستقبل المؤذنة بأن الإخراج المسند إلى ضمير الغيبة العائد على الله تعالى في قوله:﴿وَيُخْرِجُ لَهُ ﴾ ليكون في المستقبل، أي: يوم القيامة، أي نجمع له عمله كله في كتاب يُعْطَاهُ يوم القيامة مفتوحا يقرؤه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره، ولذا قيد وقت الإخراج في قوله ﴿ وَيُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾، ولم يقيد وقت الإلزام لأنه دائم موجود مع الإنسان طيلة حياته، ويؤيد هذا القول ما ذهب إليه أهل المعاني والمفسرون في معنى" طائر" في قوله :﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ ﴾ . قال أهل المعاني :" أراد بالطائر ما قضى الله عليه أنه عامله وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جار الله : ٢ / ٦٥٢ ط : دار الكتاب العربي – بيروت الثالثة – ١٤٠٧ هـ

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير الطبري :١٧ / ٤٠١المحقق: أحمد محمد شاكر،ط: مؤسسة الرسالة : الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م ٠

وسمي طائر على عادة العرب فيما كانت تتفاءل وتتشاءم به من سوانح الطير وبوارحها " [1]، وقوله :﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ مثل لما كانت العرب تتفاءل به أو تتشاءم، فأعلمهم جل ثناؤه أن كل إنسان منهم قد ألزمه ربه طائره في عنقه نحسا كان ذلك الذي ألزمه من الطائر، وشقاء يورده سعيرا، أو كان سعدا يورده جنات عدن. وبنحو الذي قلنا في ذلك، وذكر العنق لكونه عضوا من الأعضاء التي لا يمكن وجود انسان بغيرها ، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه، قال الشاعر. [2]

اذهب بها اذهب بها طوقتها طوق الحمامة

والحق أنه ـ تعالى ـ "خاطب العربَ في هذه الآية بما تَعْرِف، وذلك أنه كان مِنْ عادتها التيمُّنُ والتشاؤم بالطَّيْر في كونها سانحةً وبارحةً، وكَثُر ذلك حتَّى فعلته بالظِّباء وحيوانِ الفَلاَ، وسمَّت ذلك كلَّه تَطَيُّراً، وكانتْ تعتقدُ أنَّ تلك الطِّيَرَةَ قاضية بما يلقي الإنسان من خيرٍ وشرٍّ، فأخبرهم اللَّه تعالى في هذه الآية بأوجز لفظٍ، وأبلغِ إشارةٍ، أن جميع ما يلقى الإنسانُ من خير وشر قد سَبَقَ به القضاء، وألزم حظه وعمله وتكسُّبه في عنقه، وذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾، فعَّبر عن الحظِّ والعمل إذ هما متلازمانِ بالطائر، بحسب معتقد العرب في

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي : ابن مسعود البغوي :٣ / ١٢٤تحقيق : عبد الرزاق المهدي ط : دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ : الأولى ، ١٤٢٠ هـ، التفسير المظهري :المظهري، محمد ثناء الله: ٥ / ٤٢٠، تحقيق:غلام نبي التونسي، ط: مكتبة الرشدية باكستان: ١٤١٢هـ

(٢) البيت لعبد الله بن جحش لأبي سفيان وهو موجود في جمهرة الأمثال : ١ /٢٧٥ ،وحياة الحيوان الكبرى: محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، :١ / ٣٧٢ ط: دار الكتب العلمية، بيروت ، الثانية، ١٤٢٤ هـ.

التطيُّرِ" [1]، فالأعمال حاضرة مجسّمة في صورة كتاب، مكشوف أمام الخلائق، بعد أن كان مستورا عن أعين الناس في الدنيا، وزيادة في توضيح الصورة، جعله ملازما لصاحبه، ملازمة الطائر لصاحبه،وهذه صورة عميقة الدلالة في الحس والشعور توحي بأن الإنسان، لا يستطيع الإفلات من أعماله، مهما حاول ذلك.

والتعبير بالماضي دون الاستقبال في قوله ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ تقرير وتثبيت لتلك الصورة المستقبلة ، وتأكيد على أن تلك المشاهد الغيبية واقعة لا ريب فيها، وأن الله –تعالى– أراد أن يعيش المخاطب ساعة الوقوف أمام الله للسؤال وكل قد نال من الله ما يستحق، فجاء بصيغة الماضي﴿ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ وكأن الزمان قد انفلت كله ومضى وبعث الناس على الحشر والوقوف بين يدي الله للسؤال، وصحائفهم تتطاير عليهم، وكل منهم صدق على عمله، فيسعد أهل اليمين بأعمالهم، وتقع الحسرة والخزي على أهل الشمال جزاء ما اجترحوا الذنوب والآثام وبارزوا الله بالمعاصي، حتى إذا ما عاد المخاطب من هذا المشهد المهيب وعرف ما له، وما عليه اتبع منهج الفائزين، وابتعد عن منهج المغضوب عليهم من الله، الضالين طريق الهداية والغفران، وفي هذا ما لا يوجد في التعبير بأفعال المضارعة والاستقبال بداية ، وأبلغ للمخاطبين في حالتي الترغيب والترهيب، ومنه قوله تعالى:﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً* وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً*وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾[2]، فجاء بصيغة الماضي في الآخرين

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن : أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي :٤٥٧/٣ تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت : الأولى – ١٤١٨ هـ

(٢) سورة النبأ : ١٨ _ ٢٠

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ...وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ.﴾،وكأن الزمان قد انفلت كله ومضى، ووقعت فيه الأحداث العظام، ورأى الناس أهوالها، ثم هو يعرضها عليهم ثانية قصة من الخبر، وحدثاً من التاريخ وفي هذا ما فيه(١)، ومثله في البيان النبوي قوله ﷺ :«مَنْ جَاءَ يَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَيُقِيمُ الصَّلاَةَ وَيُؤْتِى الزَّكَاةَ وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ كَانَ لَهُ الْجَنَّةُ"(٢). فقد أخذ النبي ﷺ بألفاظ الحديث المخاطبين إلى الدار الآخرة وكأنهم يشاهدونها رأي العين ثم يعود بهم إلى أرض الواقع ويعرضها عليهم، وفي هذا من الترغيب والترهيب ما لا يوجد في التعبير بالأفعال المضارعة الدالة على الاستقبال في قضية إلزام كل بصحائفه، والتعرف على جميع أعماله، ثم انتقل إلى المضارعة في القراءتين ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ﴾- ﴿وَيُخْرِجُ لَهُ﴾ استحضارا للمشهد الأخروي في الأذهان ، كأنه واقع ماثل أمام العيون ، لا يستطيع تكذيبه إلا من عمي وضل ضلالا بعيدا ، ففي تنوع الأفعال في هذا المشهد الأخروي بين الماضي والمضارع الغرض منه الالتفات بين الأفعال لجذب المخاطب وانتباهه في جميع جزئيات المشهد مع اختلاف صوره وكثرتها، حتى يعي الصورة، ويقف على المتقابلين فيختار لنفسه ما في صلاح دنياه وآخرته ، ويبعد عن كل ما يفسد عليه أمر الدنيا والآخرة، ولك أن تتأمل صورة الإنسان في ذلك المشهد، وهو يحاول الإفلات من طائره، وهو يطارده في كل مكان، وفي أي اتجاه، وما يعانيه من هذه الملازمة أو المطاردة، لأنه يعرف مضمون كتابه، وما قدم في الدنيا من أعمال، وزيادة في إثارة الألم والندم، يتوجّه الخطاب مباشرة إلى الإنسان ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ

(١) دلالات التراكيب د / محمد محمد أبو موسى ، القسم الثاني: ٢٥١ ط : وهبة

(٢) سنن النسائي :كتاب:تحريم الدم ،باب:ذكر الكبائر من حديث أبي أيوب

حَسِيبًا ﴾[1]، وهذا الانتقال إلى أسلوب الخطاب، يجعل المشهد حيا حاضرا، وكأن قراءة قراءة الكتاب مطلوبة في الدنيا قبل الآخرة، وبذلك يتضافر التعبير مع التصوير في تحقيق التأثير النفسي[2].

فكل هذا يرشح القول بأن التغاير القرائي في الآية الكريمة من طريقة التكلم إلى الغيبة إنما جاء للدلالة على اختلاف الأزمنة ، وتغير الأحوال بين أفعال الدنيا وتنوع وقوعها، ومشاهد يوم القيامة وشدة أهوالها، زيادة عما في أسلوب الالتفات من تلوين في الخطاب، وتصرف في الكلام يزداد معه المخاطب إصغاء ونشاطا ، مما يجعلنا نقف على الأسرار البلاغية المتنوعة لذلك العدول في صور التغاير القرائي في الآية الكريمة .

. ومما هو ضارب في هذا النوع من الالتفات قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [3] قرأ الْجُمْهُورُ ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بِالنُّونِ و﴿يَقُول﴾ بِالْيَاءِ فَفِيهِ الْتِفَاتٌ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ، وَقَرَأَهُ ابْنُ كَثِيرٍ وغيره ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ و﴿فَيَقُولُ﴾ لَهما بِالْيَاءِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾وَ﴿نَقُولُ﴾[4] كِلَيْهِمَا بِالنُّونِ والاستفهام تقريري

(١) سورة الإسراء : آية : ١٣ .

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن: عبد السلام أحمد الراغب طبعة : فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

(٣) سورة الفرقان : آية : ١٧ .

(٤) السبعة في القراءات : ٥٣٠ ، حجة القراءات :٥٩٠ ، النشر في القراءات العشر : ٣٣٣/٢ ، الإقناع في القراءات السبع: أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري الغرناطي، المعروف بابن البَاذِش :ص٣٥٤ ط: دار الصحابة للتراث، وشمس = = العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم : نشوان بن سعيد الحميرى اليمني :٣ /١٤٥٧ ت: د

للاستنطاق والاستشهاد، والمعنى: أأنتم أضللتموهم أم ضلوا من تلقاء أنفسهم دون تضليل منكم ، ففي الكلام حذف دل عليه المذكور، وأخبر بفعل: أضللتم عن ضمير المخاطبين المنفصل وبفعل ضلوا عن ضمير الغائبين المنفصل ليفيد تقديم المسند إليهما على الخبرين الفعليين تقوي الحكم المقرر به لإشعارهم بأنهم لا مناص لهم من الإقرار بأحد الأمرين وأن أحدهم محقق الوقوع لا محالة. فالمقصود بالتقوية هو معادل همزة الاستفهام وهو: أم هم ضلوا السبيل.[1]، فالمعنى واحد فيهما وهو أن الله حاشرهم، وهو القائل لهم، لا شريك له، وكله جائز[2]، وعليه فإن مرجع الضميرين في القراءتين واحد وهو الله جلا جلاله، يقول الطبري: "واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأه أبو جعفر القارئ وعبد الله بن كثير:﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ﴾ بالياء جميعا، بمعنى: ويوم يحشرهم ربك، ويحشر ما يعبدون من دون فيقول. وقرأته عامة قرّاء الكوفيين ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بالنون، فنقول. وكذلك قرأه نافع ، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب" [3]، وقال الألوسي :" وقرأ ابن عامر ﴿فَنَقُولُ﴾ بنون العظمة أيضا، ومن قرأ ممن عداهم هناك بالنون وهنا بالياء كان على قراءته هنا التفاتا من التكلم إلى الغيبة، وفي نون العظمة هناك

حسين ابن عبد الله العمري – د يوسف محمد عبد الله ط: دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م

(١) التحرير والتنوير : ١٨/ ٣٣٧

(٢) معاني القراءات : ٢ / ٢١٥

(٣) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن : ١٩ / ٢٤٧ ، و تفسير ابن فورك: لمحمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني،:١ /١٨١ تحقيق: علال عبد القادر بندويش (ماجستير) ط : جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية الأولى: ١٤٣٠ – ٢٠٠٩ م

إشارة إلى أن الحشر أمر عظيم"[١]، وقد ذكر الداني: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بالنون، فيقول بالياء، وهذا هو الصواب،[٢].

فقراءة الْجُمْهُورُ:﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بِالنُّونِ و ﴿يَقُول﴾ بِالْيَاءِ فَفِيهِ الْتِفَاتٌ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ مبالغة في التوبيخ والتقريع للكافرين على عبادتهم غير الله ، وتبرأ تلك المعبودات العاجزة عنهم يوم القيامة، فهذه الآية مسوقة لتذكير المشركين بمسئوليتهم يوم القيامة عن ضلالهم دون من عبدوهم، وأن معبوداتهم تتبرأُ من شركهم، " فهذه الآية تتضمن الخبر عن أن الله يوبّخ الكفار في القيامة بأن يوقف المعبودين على هذا المعنى ليقع الجواب بالتبري من الذنب فيقع الخزي على الكافرين" [٣]، بإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن الرشد.

وتقديم الضميريْن على الفعلين بحيث لم يقل: أضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل؛ لأن السؤال ليس عن نفس الفعل، وإنما هو عن متوليه والمتصدي له، فلابد من ذكره، وإيلائه حرف الاستفهام. ليعلم أنه المسئول عنه. وفائدة سؤالهم، مع علمه تعالى بالمسئول عنه لأن يجيبوا بما أجابوا به حتى يُبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم، فتزيد حسرتهم"[٤].

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ٩ / ٤٣٧ .

(٢) جامع البيان في القراءات السبع : أبو عمرو الداني :٤ / ١٤١٣،ط: جامعة الشارقة – الإمارات : الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي : ٤ / ٢٠٣، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد ،ط: دار الكتب العلمية – بيروت: الأولى – ١٤٢٢ هـ.

(٤) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد الحسني:٤/٨٤ ت: أحمد عبد الله القرشي رسلان،الناشر: الدكتور حسن عباس زكي القاهرة: ١٤١٩ هـ.

واستعمال (مَا) إما لأن وضعه أعم ولذلك يطلق لكل شبح يرى ولا يعرف، أو لأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبودهم أو لتغليب الأصنام تحقيراً أو اعتبار الغلبة عبادها، أو يخص الملائكة وعزيراً والمسيح بقرينة السؤال والجواب، أو الأصنام ينطقها الله أو تتكلم بلسان الحال كما قيل في كلام الأيدي والأرجل "(١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن اختلاف القراء في هذه الآية كان من قبيل الالتفات ولكن من جهات متعددة، وطرق متنوعة، حيث إن قراءة الْجُمْهُورُ:﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بِالنُّونِ و﴿ يَقُول﴾ بِالْيَاءِ فَفِيهِ الْتِفَاتٌ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ . على ما سبق . ، وفي قراءة ﴿نحشرهم...ونقول﴾ بنون العظمة التفات من طريقة الغيبة في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ (٢) إلى طريقة التكلم، وكان مقتضى الظاهر ما عليه قراءة ابن كثير ، ﴿يحشرهم . ويقول﴾ وسر العدول في ذلك التعظيم من شأن الحشر وشدة هوله ، وفظاعة موقفه ، فعظم الموقف مأخوذ من عظم فاعله ، فناسب التعبير بالنون التي للعظمة، فقوله :﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ) "نُصب على أنَّه مفعول لمضمرٍ مقدَّمٍ معطوف على قوله تعالى(قل أذلك) الخ أي واذكر لهم بعد التَّقريعِ والتَّحسيرِ يوم يحشرهم الله عزَّ وجلَّ وتعليقُ التَّذكيرِ باليوم مع أن المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادثِ الهائلةِ على أنَّه ظرفٌ لمضمرٍ مؤخَّرٍ قد حُذف للتَّنبيه على كمال هوله وفظاعةِ ما فيه والإيذانِ بقُصورِ العبارةِ عن بيانِه أي يومَ يحشرُهم يكون من الأحوالُ والأهوالُ ما لا يفي ببيانِه المقالُ وقرئ بنونِ العظمةِ

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: عبد الله بن عمر البيضاوي: ٤ /١٢٠ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي ،ط: دار إحياء التراث العربي بيروت الأولى – ١٤١٨ هـ

(٢) سورة الفرقان : آية : ١٦ .

بطريقِ الالتفاتِ من الغَيبةِ إلى التَّكلمِ"[1] ، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، أما قراءة من يقرأ ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ و ﴿فَيَقُولُ﴾ فهو على مقتضى الظاهر من طريقة أسلوب الغيبة من قوله تعالى:﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾، وحجة من قرأ جميعا بالياء قوله قبلها ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ) : أي ويوم يحشرهم ربك فيقول ويقوي ذلك ما بعده ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾[2]، ولم يقل عبادنا، وحجة من قرأ نحشرهم بالنون ﴿فَيَقُولُ﴾ بالياء فإنه على أنه أفرد بعد الجمع مثل قوله ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾[3]، وحجة من قرأ {نحشرهم} بالنون: فالله أخبر عن نفسه أي نحن نحشرهم ثم عطف عليه فنقول بلفظ الجمع وحجته قوله:﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾[4] وكما قال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ "[5] .

. ومما هو من الانتقال من التكلم على الغيبة في التغاير القرائي قوله تعالى :﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .[6]

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٦/ ٢٠٨

(٢) سورة الفرقان : آية : ١٦ .

(٣) سورة الإسراء : آية : ٢ .

(٤) سورة الأنعام : آية : ٢٢ .

(٥) سورة العنكبوت : آية : ٥٣ . ٥٥ .

قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿وَيَقُولُ﴾ بالياء التحتية والضمير عائد إلى معلوم من المقام. فالتقدير: ويقول الله. وعدل عن ضمير التكلم على خلاف مقتضى الظاهر على طريقة الالتفات على رأي كثير من أئمة البلاغة، أو يقدر: ويقول الملك الموكل بجهنم، أو التقدير: ويقول العذاب، بأن يجعل الله للنار أصواتًا كأنها قول القائل: ذوقوا [1]، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالنون[2] وهي نون العظمة.".

قال أبو منصور الأزهري: مَنْ قَرَأَ: ﴿ونقول﴾ فاللَّه يَقُوله ، وَمَنْ قَرَأَ بالياء فالمعنى: ويقول الله لهم ذوقوا."[3]"، فمرجع الضمير في القراءتين واحد وهو الله تعالى، وعلى ذلك فإن قراءة ﴿وَيَقُولُ﴾ بالياء انتقال بالسياق من طريقة التكلم إلى طريقة الغيبة، ومقتضى الظاهر أن يأتي السياق على صورة التكلم القائل لهم يوم القيامة ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وسر هذا العدول في هذه القراءة توبيخ للمخاطبين وتقريع المشركين المعاندين، وإنكار سوء فعلهم، وتشنيع قبح طلبهم وهو الاستعجال بالعذاب، وتكرار

---

(١) التحرير والتنوير :٢١ / ٢٠ .

(٢) السبعة في القراءات : ٥٠١ ، حجة القراءات : ٥٥٣ ، التيسير في القراءات السبع : عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني: ١٧٤؛ ت: اوتو تريزل ط: دار الكتاب العربي – بيروت : الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، العنوان في القراءات السبع : أبو طاهر إسماعيل بن خلف بن سعيد المقرئ الأنصاري السرقسطي :١٥٠ ت : زهير زاهد وغيره عالم الكتب، بيروت : ١٤٠٥هـ ، النشر في القراءات العشر : ٢ / ٣٤٣، تحبير التيسير في القراءات العشر: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري،:٥٠٢ : د. أحمد محمد مفلح القضاة ط: دار الفرقان – الأردن / عمان : الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م

(٣) معاني القراءات : ٢ / ٢٦٠

الطلب دليل على غبائهم، وسوء فعالهم وهو ما جاء نصا في قوله تعالى: تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، ومن ثم صرف الله عنهم مخاطبتهم بصيغة التكلم التي تطلب حضور المتكلم الآمر بالإذاقة، إلى صيغة الغيبة، فكأنه مقتهم وأبعدهم عن حضرته إهانة وتقريعا لما قاموا به من فعل أو تقولوه من لفظ ، وما تعجلوا وقوعه من عذاب في صورة التكرار طلبا للتأكيد والتقرير لمطلبهم العجيب، وموقفهم الغريب ، ومن ثم كان العذاب محاطا بهم من كل جانب ردا قويا، وجاء الأمر حاملا معنى الخزي والمهانة بقوله: ﴿ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي في الدنيا من أعمال أوجبت لكم العذاب الشديد، وهو مشهد مفزع في ذاته، يصاحبه التقريع المخزي والتأنيب المرير وكأنه يقول لهم حين استعجلوا العذاب استخفافا واستهزاء ﴿ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، وبما كنتم تظنون عدم مجيئه.

وقد خص الجانبين﴿ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ بالذكر؛ لأن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ، ونار الدنيا تحيط بالجوانب الأربع ، فإن من دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره ، وأما النار من فوق فلا تنزل وإنما تصعد من أسف في العادة العاجلة وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة التي تحت القدم، ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس موضع القدم،[1].

وقال: ﴿ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ولم يقل من فوق رءوسهم، ولا قال من فوقهم ومن تحتهم، بل ذكر المضاف إليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق ؛ لأن نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرءوس، وسواء كان من

(١) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر فخرالدين الرازي:٢٥ / ٦٨ ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

موضع آخر عجيب، فلهذا لم يخصه بالرأس، وأما بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب، وإلا فمن جوانب القدم في الدنيا يكون شعل وهي تحت فذكر العجيب وهو ما تحت الأرجل حيث لم ينطق بالدوس وما فوق على الإطلاق ، ثم قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والإهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب، فإن عملهم كان سببا لجعل الله إياه سببا لعذابهم، وهذا كثير النظير في الاستعمال. (١)

وعلى كل فإن القراءتين ﴿وَيَقُولُ ﴾ و ﴿ نَقُولُ ﴾ ترجعان إلى معنى واحد وكان مرجع الضمير في ذلك هو الله تعالى ، وقد يكون القائل ملائكة العذاب الموكلين بالنار ، والمعنى ويقول الملك الموكل بهم ذوقوا ما كنتم تعملون في الدنيا، وتكون قراءة (نقول) بنون العظمة التي تستعمل في حديث الملوك ؛ يعني: نقول لهم نحن ذوقوا، وهي حكاية عن الله سبحانه وتعالى بلفظ الجماعة، وهو لفظ الملوك وإنما نسب إليه القول؛ لكونه سببا في فعله ، والحاكم لكل موقف حينئذ .(٢)

ولك أن تتأمل تلك المحاورة ثلاثية الأطراف، والتي وقع فيها الالتفات بسبب هذا التغاير القرائي بين الله تعالى ، ورسوله – صلى الله عليه وسلم – تعقيبا على ما دار بين النبي – ﷺ– والكفار، الذين يستعجلونه العذاب، وهو حوار متباعد الأطراف، له دلالات متعددة السياقات مقالية وحالية، حتى لا تكون المواجهة مع الله مباشرة إهانة وتقريعا، وإمارة على مقت الله لهم وطردهم من رحمته حالا ومقالا ، لذلك المطلب العجيب الغريب الدال على فساد عقلهم ، وسوء طويتهم مثلهم في

(١) مفاتيح الغيب : ٢٥/ ٦٨ .

(٢) تفسير البغوي : ٣ / ٥٦٤

ذلك مثل الذين قالوا : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [1]، استخفافا واستكبارا إنما قالوا ذلك مستهزئين ومتعنتين. ولو قصدوا الحق لقال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ، ولكنهم كفروا وأنكروا أن يكون الله يبعث رسولا بوحي من الله، وإن عقلوا لطلبوا ما فيه صلاح لهم ، ولكن هيهات أن يطلبوا أمرا يخالف سوء طويتهم ، وفساد عقولهم ، فالسياقات المقالية لآيات الأنفال وإن اختلفت مع سياقات آيات العنكبوت ، إلا أن السياقات الحالية، أو الحالات الاعتبارية بين الموقفين متشابهة بل متعانقة، فالحال واحدة، وهي الاستخفاف والاستهزاء بآيات الله، وطلب ما لا يعقل طلبه استكبارا وتعنتا ، كفرا وطغيانا، ومن ثم قوبل تعنتهم واستكبارهم بإعراض الله عنهم بالالتفات مقالا، وبالمقت والطرد مقاما .

. ومن الالتفات من التكلم إلى الغيبة في التغاير القرائي قوله تعالى:

﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ . [2]

قرأ الجمهور نخسف ونسقط بنون العظمة. وقرأها حمزة والكسائي وخلف بياء الغائب[3]، وتوضيح ذلك أن من قرأ بالياء: فمعناه إن يشأ الله، ومن قرأ بالنون

(١) سورة : الأنفال : آية : ٣٢ .

(٢) سورة سبأ : آية : ٨ . ٩ . و خسف الأرض معناه: إهواؤها بهم وتهورها وغرقهم فيه والكسف قيل: هو مفرد اسم القطعة، وقيل: هو جمع كسفة جمعها على حد تمرة وتمر ومشهور جمعها كسف،

(٣) السبعة في القراءات : ٥٢٧ ، حجة القراءات : ٥٨٣ ، التيسير في القراءات السبع: ١٨٠،تحبير التيسير : ٥١٤ العنوان في القراءات السبع: ١٥٦ .

فهو على معنى الإضافة إلى نفسه، فمرجع الضميرين واحد وهو الله تعالى، فالياء والنون في المعني سيَّان؛ لأن المشيئة لله عزَّ وجلَّ في القراءتين،(١)، "والضمير في قوله ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ ﴾ لهؤلاء ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ وقفهم الله تعالى على قدرته وخوفهم من إحاطتها بهم، المعنى أليس يرون أمامهم ووراءهم سمائي وأرضي لا سبيل لهم إلى فقد ذلك عن أبصارهم ولا عدم إحاطته بهم" (٢)، وهذه القراءة على الالتفات من مقام التكلم إلى مقام الغيبة، ومعاد الضميرين معروف من سياق الكلام.

وجملة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ تعليل للتعجيب الإنكاري باعتبار ما يتضمنه من الحث على التأمل والتدبر، فموقع حرف التوكيد هنا لمجرد التعليل، ووجهة ذلك أن في قراءة ﴿يشأ ـ يخسف﴾ بالياء من الالتفات من مقام التكلم إلى مقام الغيبة، والتعبير بلفظ مقام التكلم يرجع بنا إلى مذهب السكاكي في الالتفات، الذي يرى أن الالتفات أوسع من أن يأتي الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في سياق الكلام، بل جعل مجيء الكلام على خلاف مقتضى ظاهر المقام منه، وليس شرطا أن يكون التعبير عن معنى من الطرق الثلاثة أن يكون مسبوقا بطريق آخر منها ـ كما هو عند الجمهور ـ، فلا يشترط أن يكون الضمير المنتقل إليه عائدا في نفس الأمر إلى الملتفت عنه ، بمعنى ليس شرطا أن يعود الضمير الثاني على نفس الشيء الذي عاد إليه الضمير الأول ، فكل انتقال عنده يعد التفاتا، سواء كان هذا الانتقال واردا في سياق الكلام، أو واقعا على خلاف مقتضى الظاهر من المقام، وعليه فإن التغاير القرائي في الآية الكريمة بياء الغائب ﴿ يَشَأْ ـ ويَخْسِفُ﴾ على

(١) معاني القراءات للأزهري : ٢ / ٢٨٨ .

(٢) تفسير ابن عطية : ٤٠٦/٤

الالتفات من مقام التكلم إلى مقام الغيبة، وسر العدول من مقام التكلم إلى الغيبة هو الاحتراز من إسناد ما فيه صور من العذاب إلى الله لفظا، لاسيما وأن الكلام سيق للتهديد والتخويف لا على سبيل الوعيد المحقق . كما هو واضح من معنى الآية . لقوله تعالى بعد ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي تائب راجع عما كان عليه من ضلال بعيد، وعلى مقتضى ظاهر الكلام عند غير السكاكي من جمهور البلاغيين عودا على ظاهر الكلام في قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ على الغيبة لذكر لفظ الجلالة "الله" فيما قبل.

ويمكن الذهاب إلى أن الالتفات الواقع في هذه الآية ليس من قبيل الانتقال من التكلم إلى الغيبة عند جمهور البلاغيين، وإنما هو من الانتقال من الغيبة إلى التكلم عند من قرأ بالنون ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ وهي قراءة الجمهور، فقد جرى الكلام على سياق الغيبة في قوله : ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بذكر لفظ الجلالة ظاهرا، ثم انتقل إلى طريقة التكلم في قراءة الجمهور:﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ بالنون التي للعظمة، وكان مقتضى الظاهر أن يأتي الكلام على سياق الغيبة كما في قراءة الكسائي وحمزة، ويكون السر البلاغي بيان مقدرة الله تعالى، وأنه لعظمة قدرته واقتداره عليهم يستطيع أن يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء كما فعل بالأمم السابقة، فالكلام سيق لأجل التهديد والتخويف، لا الوعيد المحقق الوقوع فناسب الانتقال بصيغة التكلم التي تحمل معاني العظمة والقدرة عليهم.

وذهب العلامة أبو السعود أن قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ استئناف مسوق لتهويل ما اجترءوا عليه من تكذيب آيات الله تعالى واستعظام ما قالوا في

حقه عليه الصلاة والسلام وأنه من العظائم الموجبة لنزول أشد العقاب وحلول أفظع العذاب من غير ريث وتأخير، وقوله تعالى: إن نشأ إلخ بيان لما ينبئ عنه ذكر إحاطتهما بهم من المحذور المتوقع من جهتهما وفيه تنبيه على أنه لم يبق من أسباب وقوعه إلا تعلق المشيئة به أي فعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل المستتبع للعقوبة فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم بحيث لا مفر لهم عنه ولا محيص إن نشأ جريا على موجب جناياتهم ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ كما خسفناها بقارونَ ﴿ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا ﴾ أي قِطعاً ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ كما أسقطناها على أصحابِ الأَيْكةِ لاستيجابهم ذلك بما ارتكبُوه من الجرائم وقيل هو تذكيرٌ بما يُعاينونَهُ ممَّا يدلُّ على كمال قُدرتِه وما يحتمل فيه إزاحة لاستحالتِهم البعث حتى جعلوه افتراء وهزءا وتهديدا عليها"[1]

ورد على ذلك الإمام الألوسي بقوله :" ولا يخفى أن فيه بعدا وضعف ربط بالنسبة إلى ما سمعت أولا مع أن ما بعد ليس فيه كثير ملائمة لما قبله عليه ، ويخطر لي أن قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا ﴾ مسوق لتذكيرهم بأظهر شيء لهم بحيث إنهم يعاينونه أينما التفتوا ولا يغيب عن أبصارهم حيثما ذهبوا يدل على كمال قدرته عز وجل إزاحة لما دعاهم إلى ذلك الاستهزاء والوقيعة بسيد الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام من زعمهم قصور قدرته تعالى عن البعث والإحياء ضرورة أن من قدر على خلق تلك الإجرام العظام لا يعجزه إعادة أجسام هي كلا شيء بالنسبة إلى تلك الإجرام كما قال سبحانه ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2]، وفيه من التنبيه على مزيد جهلهم المشار إليه بالضلال البعيد ما

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم :٧ / ١٢٣

(٢) سورة : يس : آية : ٨١

فيه، وقوله تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي فيما ذكر مما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض لآية أي لدلالة واضحة على كمال قدرة الله عز وجل وأنه لا يعجزه البعث بعد الموت وتفرق الأجزاء المحاطة بهما لكل عبد منيب أي راجع إلى ربه تعالى مطيع له جل شأنه لأن المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله عز وجل والتفكر فيها كالتعليل لما يشعر به قوله سبحانه ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ ﴾ من الحث على الاستدلال بذلك على ما يزيح إنكارهم البعث ، وفيه تعريض بأنهم معرضون عن ربهم سبحانه غير مطيعين له جل وعلا وتخلص إلى ذكر المنيبين إليه تعالى على قول، وقوله تعالى:﴿إِن نَّشَأْ ﴾ كالاعتراض جيء به لتأكيد تقصيرهم والتنبيه على أنهم بلغوا فيه مبلغا يستحقون به في الدنيا فضلا عن الأخرى نزول أشد العقاب وحلول أفظع العذاب وأنه لم يبق من أسباب ذلك إلا تعلق المشيئة به إلا أنها لم تتعلق لحكمة، وظني أنه حسن وتحتمل الآية غير ذلك والله تعالى أعلم بأسرار كتابه، وقيل: إن ذلك إشارة إلى مصدر يروا وهو الرؤية وذكر لتأويله بالنظر والمراد به الفكر، وقيل إشارة إلى ما تلي من الوحي الناطق بما ذكر" [1].

كما أن هذا الاعتراض بالتهديد فمناسبة التعجيب الإنكاري بما يذكرهم بقدرة صانع تلك المصنوعات العظيمة على عقاب الذين أشركوا معه غيره والذين ضيقوا واسع قدرته وكذبوا رسوله– ﷺ– وما يخطر في عقولهم ذكر الأمم التي أصابها عقاب بشيء من الكائنات الأرضية كالخسف أو السماوية كإسقاط كسف من الأجرام

(١) روح المعاني . الألوسي : ٢٨٦/١١

السماوية مثل ما أصاب قارون من الخسف وما أصاب أهل الأيكة من سقوط الكسف. (١)

وعلى كل فإن التغاير القرائي في الآية الكريمة له توجيهه البلاغي الذي يدلل على أن القراءتين يحملان من المعاني ما يجعلها بابا في البلاغة والإيجاز، ولا يكون ذلك إلا برد كل قراءة لما يلائمها في السياق الكلمي ، أو النسق القرآني للآية الكريمة ، قال صاحب حجة القراءات: قرأ حمزة والكسائي ﴿إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بالياء إخبارا عن الله أي إن يشأ الله يخسف بهم الأرض وحجتهما في ذلك أن الكلام أتى عقيب الخبر عن الله في قوله ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فكذلك، إن يشأ الله إذ كان في سياقه. (٢)، وقرأ الباقون:﴿إِنْ نَشَأْ﴾ بالنون الله أخبر عن نفسه أي نحن نخسف وحجتهم في ذلك أن الكلام أتى عقيبه بلفظ الجمع وهو قوله:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾(٣)فجعل ما قبله بلفظه إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد ويقوي النون قوله ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ (٤) .

. ومثل ذلك في الالتفات من مقام التكلم إلى الغيبة في التغاير القرائي قوله تعالى : ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾. (٥)

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٢٣ / ١٥٣

(٢) حجة القراءات : ٥٨٣

(٣) سورة : سبأ : بعض آية : ١٠

(٤) سورة : القصص : بعض آية : ٨١ ، ينظر : حجة القراءات : ٥٨٣

(٥) سورة :الرحمن : آية : ٢٩ . ٣١

قرأ الجمهور سنفرغ بالنون، وقرأ حمزة بالياء المفتوحة[1] على أن الضمير عائد إلى الله تعالى على طريقة الالتفات"، وكلاهما يرجع إلى معنى واحد. يعني: سيحفظ الله عليكم أعمالكم، ويحاسبكم بما تعملون.

والخطاب في قوله﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ قيل: للمجرمين، وتعقب بأن النداء الآتي يأباه، نعم المقصود بالتهديد هم، وقيل: لا مانع من تهديد الجميع، ثم إن هذا التهديد إنما هو بما يكون يوم القيامة"[2]، وهو أسلوب شديد الوعيد مرعب مزلزل، لا يستطيع تحمله إنس ولا جان، ولا تقف له الجبال الرواسي ولا يمكن أن تتحمله البحار فالمتحدث هو الله القوي القادر، القهار الجبار، الكبير المتعال. الله- سبحانه- ، في وعيد وانتقام! إنه أمر. إنه هول. إنه فوق كل تصور واحتمال! والله- سبحانه- يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين، وعيد ما بعده وعيد وصل لحد تعجز النفس عن تحمله، وهو "مستعار من قول الرجل لمن يتهدده: سأفرغ لك، يريد: سأتجرّد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنك، حتى لا يكون لي شغل سواه،

(١) السبعة في القراءات: ٦٢٠، حجة القراءات: ٦٩٢، التيسير في القراءات السبع: ٢٠٦، تحبير التيسير : ٥٧١ العنوان في القراءات السبع: ١٨٤ ، الحجة للقراء السبعة: الحسن ابن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي :٢٤٨/٦ت: بدر الدين قهوجي – بشير جويجابي ،راجعه ودققه: عبد العزيز رباح – أحمد يوسف الدقاق ط: دار المأمون للتراث – دمشق / بيروت : الثانية، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م ، جامع البيان في القراءات السبع: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني ٤ / ١٦٢٤ط: جامعة الشارقة – الإمارات: الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م ،مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني: محمد بن أبي المحاسن محمود بن أبي شجاع أحمد الكرماني، أبو العلاء الحنفي :٣٨٩ ، دراسة وتحقيق: عبد الكريم مصطفى مدلج تقديم: الدكتور محسن عبد الحميد ،ط: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان : الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م

(٢) تفسير روح المعاني : ١٤ / ١١١

والمراد: التوفر على النكاية فيه والانتقام منه، ويجوز أن يراد: ستنتهي الدنيا وتبلغ آخرها، وتنتهي عند ذلك شئون الخلق التي أرادها بقوله كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فلا يبقى إلا شأن واحد وهو جزاؤكم، فجعل ذلك فراغا لهم على طريق المثل" [1].

قال الطبري:" اختلفت القرّاء في قراءة قوله﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة وبعض المكيين (سَنَفْرَغُ لَكُمْ) بالنون، وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة (سَيَفرغ لَكُمْ) بالياء، وفتحها ردّا على قوله: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى، فبأيّتهما قرأ القارئ فمصيب" [2]: من قرأ (سَيَفْرُغُ) أو (سَنَفْرُغُ) فالفعل لله. [3]، فالالتفات في تلك القراءة راجع إلى خروج الكلام على خلاف مقتضى ظاهر المقام . كسابقه . فليس ثمة طريق تكلم سابق حتى يخرج الكلام منه إلى طريقة الغيبة، ولكن لما كان القول خارجا من منافذ العزة، ومصدر القوة ونفاذ الإرادة وهو الله تعالى عاد ضمير الغيبة في قوله (سَيَفْرُغُ) إليه سبحانه على سبيل الالتفات على مذهب السكاكي ومن تبعه في عدم اشتراط سبق الالتفات بطريق من طرق الكلام الثلاثة، بل يشمل كل كلام جاء على خلاف مقتضى ظاهر المقام أو الكلام، والأولى أن يقال إن الالتفات واقع في قراءة الجمهور (سَنَفْرُغُ لَكُمْ) وذلك بانتقال الكلام من طريقة الغيبة والذي يقتضيه السياق من أول السورة في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [4] إلى قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى

(١) تفسير الكشاف . الزمخشري : ٤ / ٤٤٨

(٢) تفسير الطبري : ٢٣ / ٤١

(٣) معاني القراءات : ٣/ ٤٦

(٤) سورة :الرحمن : آية : ١ . ٥

﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلى طريقة التكلم في قوله تعالى: ﴿ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ وكان مقتضى الظاهر من الكلام أن يأتي على قراءة عامة قراء الكوفة(سَيَفْرُغُ) بالياء ، وإنما نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور(التكلم) لكونه أبلغ في الترهيب والزجر من إجرائه على سنن واحد لما في التعبير بطريقة التكلم في هذا المقام من تربية المهابة، وإلقاء الرهبة في القلوب ، بإظهار العظمة والجلال في التعبير بنون العظمة (سَنَفْرُغُ لَكُمْ) في مقام التهديد والوعيد،" فإنه وعيد من الله لعباده وتهدد، كقول القائل الذي يتهدّد غيره ويتوعده، ولا شغل له يشغله عن عقابه، لأتفرغنّ لك، وسأتفرّغ لك، بمعنى: سأجدّ في أمرك وأعاقبك، وقد يقول القائل للذي لا شغل له: قد فرغت لي، وقد فرغت لشتمي: أي أخذت فيه، وأقبلت عليه، وكذلك قوله جلّ ثناؤه: ﴿ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ أي: سنحاسبكم، ونأخذ في أمركم أيها الإنس والجنّ، فنعاقب أهل المعاصي، ونثيب أهل الطاعة" [1].

وليس الإفراغ هنا عن شغل ، فالله ليس مشغولا فيفرغ، وإنما هو تقريب الأمر للتصور البشري، وإيقاع الوعيد في صورة مذهلة مزلزلة، تسحق الكيان بمجرد تصورها سحقا. فهذا الوجود كله نشأ بكلمة. كلمة واحدة. كن فيكون، وتدميره أو سحقه لا يحتاج إلا واحدة كلمح بالبصر.. فكيف يكون حال الثقلين، والله يفرغ لهما وحدهما، ليتولاهما بالانتقام؟!، وقد يكون الفراغ هنا بمعنى القصد لا الفراغ من الشغل ويكون اللفظ على حقيقته يستدل عليه بما قاله جرير: [2]

الآن وقد فرغت إلى نمير فهذا حين كنت لهم عذابا

(١) تفسير الطبري : ٢٣ / ٤١

(٢) شرح ديوان جرير: ٧٢ – محمد إسماعيل الصاوي – مكتبة دار الثقافة العربية

أي قصدت، ومنه قوله أيضا : [1]

ولَمَّـا اتَّقَـى القَـيْنُ العَراقِـيَ بِاسْـتِه فَرَغْتُ إِلَـى العَبْدِ المُقَيَّدِ فِـي الحِجْـلِ

قَالَ: مَعْنَى فَرَغْتُ أَي عَمَدْتُ. وَفِي حَدِيثِ أَبي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: افْرُغْ إِلَى أَضْيافِك: أَي اعْمِدْ واقْصِدْ،"[2]" ، والظاهر أنهم حملوا ما في الآية على ذلك، فالمراد حينئذ تعلق الإرادة تعلقا تنجيزيا بجزائهم. وهذا جري على استعمال العرب، ويحتمل أن يكون التوعد بعذاب في الدنيا والأول أبين[3]، وقوله: ﴿ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾: أي الجن والإنس، سميا ثقلين لأنهما ثقل على الأرض أحياء وأمواتا، قال الله تعالى ﴿ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴾[4]، وقيل : سمي الإنس والجن ثقلين، لأنهما ثقلا بالذنوب وهذا بارع ينظر إلى خلقهما من طين ونار[5].

وقال بعض أهل المعاني: كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل، قال النبي – ﷺ – : "إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي[6] فجعلهما ثقلين إعظاما لقدرهما ، وقال : سمي الجن والإنس ثقلين ؛ لأنهما مثقلان بالذنوب[1].

---

(١) السابق صـ ٤٥٩ .

(٢) لسان العرب جمال الدين ابن منظور الإفريقى :٨ / ٤٤٥ الناشر: دار صادر – بيروت : الثالثة – ١٤١٤ هـ ، و الكامل في اللغة والأدب: محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس :٢٤/١ المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط: دار الفكر العربي – القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ .

(٣) تفسير المحرر الوجيز – لابن عطية الأندلسي : ٥ / ٣٢٠

(٤) سورة : الزلزلة : آية : ٢

(٥) تفسير المحرر الوجيز : ٥ / ٣٢٠

(٦) الحديث في المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري باب : من مناقب أهل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ٣ / ١٦٠ ، تحقيق: مصطفى عبد

ولعلنا نلحظ بعد هذا العرض لصورة الالتفات من التكلم إلى الغيبة في باب تغاير القراءات وتعددها ، أن المفسرين لم يقفوا عند حد الجمهور للالتفات وإنما ذهبوا في ذلك مذهب السكاكي، بل جعل من الالتفات ما جاء مخالفا لمقتضى الحال من الكلام، كما أنهم لم يمعنوا النظر في الفائدة البلاغية من الالتفات في هذا التغاير القرائي بل اكتفوا– في الغالب الأعم – بالعرض السطحي دون الانتقال من مرحلة الوصف الظاهري بقولهم "وهو التفات" أو "على الالتفات" إلى مرحلة التعليل والتحليل للغرض أو المغزى من هذا الالتفات، أو المعنى الزائد في تغاير القراءة أو تعددها ، سواء في باب الوعد والاستعطاف والإقبال، أو في معرض الوعيد بمواجهة المتلقيين بالتوبيخ والإنكار، والإعراض عنهم لسوء فعلهم ، كما درج عليه في صور الالتفات السابقة .

القادر عطا ، ط: دار الكتب العلمية – بيروت ، : الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠، ومسند البزار المنشور باسم البحر الزخار: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار : مسند جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ ١٠ / ٢٣٢ ت :عادل ابن سعد ط: مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة : الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م)

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن– تفسير البغوي: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي :٤٤٧/٧ : حققه :محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش ،ط: دار طيبة للنشر الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م

المبحث الثاني
الالتفات من الغيبة للتكلم

حده : التعبير عن المعنى بطريق الغيبة أولا، سواء عن طريق التعبير بالضمير أو بالاسم الظاهر القائم مقام الغيبة، ثم العدول عنه إلى طريق التكلم، وذلك لقصد الامتنان أو بيان فضل من المتكلم ،بعد تعداد نعمه عليهم، أو استدراجهم من مقام الغيبة إلى الحضور والمشاهدة ، تسجيلا عليهم فعلهم شكرا أو نكرانا، والمقصد منه " تربية المهابة والإحساس بالقرب"(١) ، وهو كثير الوجود في القرآن الكريم،(٢)

مما تجدر الإشارة إليه أن الالتفات من الغيبة للتكلم في باب القراءات القرآنية لا يكاد يخرج عن معنى التفخيم والتعظيم إذ ورد التحول، وذلك في معظم نماذجه في القرآن الكريم بنون المتكلم المعظم ذاته، ولذلك يسميها النحاة " نون العظمة ""٣""، وتأتي دائما في معرض تعداد النعم، وبيان أن تلك الأمور لا تخرج إلا من منافذ العزة، ومواطن التملك والاقتدار، وعظمة المعطي تدل على عظم العطاء، أو في مقام العقاب المستحق يوم القيامة جزاء ما قدموه من اعتقادات خاطئة، أو

---

(١) الأصلان في علوم القرآن د. محمد عبد المنعم القيعي– صـ ٣٢٨ ، الطبعة: الرابعة ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م – الناشر:حقوق الطبع محفوظة للمؤلف .

(٢) ومنه قوله :﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ ، قصدا لدلالة على الاختصاص فإنه لما كان سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها بالمطر دالا على القدرة الباهرة التي لا يقدر عليها غيره عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم لأنه أدخل في الاختصاص .[البرهان للزركشي : ٣ / ٣٣٠].

(٣) اللمحة في شرح الملحة: أبو عبد الله، شمس الدين، المعروف بابن الصائغ ،١٤٣/١،تحقيق: إبراهيم بن سالم الصاعدي ط: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية : الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

أعمال فاسدة في الدنيا ودائما ما يكون التعبير عنها بما يطلق عليها عند علماء اللغة بـ"نون العظمة "، ويرد الالتفات إلى التكلم في مقام الوعد بغرض الاهتمام بالمتلقين، وزيادة الاعتناء بهم، بتشريفهم بالتكلم، وما يستتبعه ذلك من الدلالة على وفرة الحب وجزالة الجزاء، فكل ما يصدر عن العظيم عظيم، ولذلك قالوا: إن الإخبار بالنون في مقام الثواب والعقاب أبلغ من الإخبار بالياء.(١)، غير أن مغزاه البلاغي يختلف ضرورة باختلاف مقامه بحسب التبليغ، والوعد بالثواب، أو الوعيد بالعقاب"(٢) ، وإليك بيان ذلك من خلال عرض نماذج من النظم القرآني المعجز ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (٣) .

قَرَأَ نَافِعٌ وَعَاصِمٌ:﴿وَيُعَلِّمُهُ ﴾ بِالتَّحْتِيَّةِ أَيْ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ، وَقَرَأَهُ الْبَاقُونَ بِنُونِ الْعَظَمَةِ(٤) على الالتفات، وهي جملة مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾بطريق

(١) التوجيه اللغوي للقراءات السبع عند أبي علي الفارسي في كتابه الحجة – دراسة تطبيقية على مستويات التحليل اللغوي – د/ عمر خاطر عبد الغني وهدان : ٢٦٤، قدم له د/ عبده الراجحي ، د/ مجدي محمد حسين – طبعة مكتبة الآداب – القاهرة الأولى ١٤٣٠هـ ، ٢٠٠٩م .

(٢) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية : صـ ٣٤٧ .

(٣) سورة آل عمران : آية : ٤٥ – ٤٨

(٤) كتاب السبعة في القراءات:٢٠٦ ، النشر في القراءات العشر: ٢/ ٢٢٠،حجة القراءات : أبو زرعة: صـ ١٦٣ ت: سعيد الأفغاني ط: دار الرسالة.

الغيبة في لفظ الجلالة الظاهر ﴿ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾ بعد الاعتراض بكلام السيدة مريم بقولها: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، قال أبو منصور: المعنى واحد في (يُعَلمُهُ) و (نُعَلمُهُ) ،والتعليم لله جلَّ وعزَّ في الوجْهَين [1]، وقال صاحب الحجة للقراءات السبعة :" فحجّة من قرأ:﴿ وَيُعَلِّمُهُ ﴾ أنّه عطفه على قوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾،﴿ وَيُعَلِّمُهُ ﴾ على العطف على ﴿ يُبَشِّرُكِ ﴾، ومن قال:﴿ نعلمه ﴾: فهو على هذا المعنى، إلّا أنّه جعله على نحو نحن قدرنا بينكم الموت [2]، فمن قرأ بِالْيَاءِ إِخْبَار عَن الله أَنه يُعلمهُ الْكتاب وحجتهما قَوْله قبلهَا ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ﴾، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ ﴿ نعلمه ﴾ بالنُّون أَي نَحن نعلمهُ وحجتهم قَوْله قبلهَا ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾[3]، فقراءة ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ﴾ بالياء معطوف على الحال وهي قوله: «وجيها» – فكأن جبريل قال: وجيها ومعلما– أو على يبشرك. والباقون و «نعلمه» بالنون معمول لقول محذوف من كلام الملك تقديره «وجيها»، ومقولا فيه نعلمه أو أن الله يبشرك بعيسى ويقول نعلمه كتب الأنبياء والكتابة أي الخط. وَالْحِكْمَةَ أي العلم المقترن بالعمل وتهذيب الأخلاق وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وخصا بالذكر لفضلهما [4].

(١) معاني القراءات للأزهري :١ / ٢٠٠.

(٢) سورة آل عمران: آية : ٤٤ ، ينظر : حجة القراءات لأبي زرعة : ١٦٣ .

(٣) سورة الواقعة : آية : ٦٠ وينظر : الحجة للقراء السبعة : ٣ : ٤٣ .

(٤) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد– محمد بن عمر نووي الجاوي البنتني :١/ ١٢٥ – المحقق: محمد أمين الصناوي – دار الكتب العلمية – بيروت– الأولى – ١٤١٧ هـ، وتفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن– للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد

وتكمن بلاغة التعبير بالالتفات في هذا التغاير القرائي في مطابقة السياق المقالي لما يطلبه السياق الحالي؛ لأنه لما كان المسند المذكور في الآيات مما يأتي على غير مثال سابق، أو على غير ما جرت به العادة، من الخلق بلا أب في قوله : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ ، والكلام في المهد على غير عادة في قوله: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ ﴾ ، وهذا مما لا يفعله إلا الله إيجادًا اقتدارًا، ناسب أن يعبر بالظاهر:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾ لما فيه من معنى الجلال ومعنى الجمال معا ما لا يوجد في أسلوب التكلم، لكن لما كان المسند مما يمكن أن يشاركه فيه أحد ظاهرا، ناسب أن يتحدث بطريق التكلم؛ قصدا للاختصاص، وللاهتمام بالإخبار عن نفسه لما فيه معنى العظمة والتفضل بما أنعمه عليه دون غيره، فقيمة الالتفات إلى التكلم في هذه القراءة أنه يضيف إلى تفرد الخلقة التي ماز الله بها عيسى عليه السلام من سائر البشر – نوعا من الخصوصية، إذ يصنعه الله – سبحانه – على عينه ويتفرد بتعليمه، لإظهار بركته تبشيرا لأمه مريم وجبرا لقولها ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾، وإزاحة لما أهمَّها من خوف اللوم عندما أخبرت أنها ستلد من غير زوج. (١)

فهذا التغاير القرائي للفعل أحدث لونا من الفخامة للفعل والفاعل معا وما وقع عليه من مفاعيل، فالإحالة من طريق الغيبة إلى طريق التكلم في مقام الإبلاغ إنما يأتي للتفخيم والتعظيم من شأن الإسناد.

الله الأرمي العلوي الهرري: ٤ / ٣٠٦، إشراف ومراجعة: هاشم محمد علي بن حسين مهدي– ط: دار طوق النجاة، بيروت – لبنان– الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل– البيضاوي: ٢ / ١٨، والسراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: ١/ ٢١٦ ، تفسير المظهري : ٣/ ٥١ .

قال أبو حيان: "على قراءة النون، يكون من باب الالتفات، خرج من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم لما في ذلك من الفخامة"(١).

وعبارة أبي حيان(لما في ذلك من الفخامة) والتي تشير إلى الإحالة الموجودة في التغاير القرائي تضرب بسهم في بيان الغرض منها ، وأثرها في أداء المعنى، إذ أن العظيم حين يعطي يكون العطاء على قدر عِظَمِه، ولذا ناسب التعبير بما يدل على العظمة، وهذا متحقق في قراءة النون دون الياء، وهذا من تعظيم الفعل ومفعوله مع تعظيم الفاعل في مقام الوعد بالخير

ومما هو من ذلك – أيضا – في باب التغاير القرائي قول الله تعالى:

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢)."

ومعنى مرضاة الله : الإخلاص في العمل والبعد به عن شوائب الرياء والسمعة ، والمقصود هنا: أنه رتب حصول الأجر العظيم على الأعمال بإرادة وجهه تعالى، لما ذكر الصدقة والمعروف، والإصلاح بين الناس وجعل مخالفة ذلك الرياء والسمعة وعدم القصد وجهه تعالى، كما قابل بين الرياء ومرضاة الله في قوله تعالى ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ (٣) وفي مقابله قوله: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ (٤)، وقد قَرَأَ الْجُمْهُورُ:﴿ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ – بِنُونِ الْعَظَمَةِ– عَلَى الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِه:﴿ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ بالتعبير بالظاهر لفظ

(١) البحر المحيط في التفسير : ٣ / ١٥٩ .

(٢) سورة النساء : آية : ١١٤ .

(٣) سورة البقرة : آية : ٢٦٥ .

(٤) سورة البقرة : آية : ٢٦٤ .

الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ إِلَى التَّكَلُّمِ، وَقَرَأَهُ أَبُوعَمْرٍو، وَحَمْزَةُ، بِالتَّحْتِيَّةِ[1]، عَلَى ظَاهِرِ قَوْلِه:﴿ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، والنون والياء مرجع الضمير فيهما واحد وهو الله – تعالى – فهو الذي يعد بالأجر، ويثيب الخير، وحجة من قرأ بالياء أَنه قرب من ذكر الله وَهُوَ قَوْلـه ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ فَجعلَوا الْفِعْل بعده على لفظ مَا تقدمه ليأتلف نظام الْكَلَام على سِيَاق وَاحِد، وحجة من قرأ بالنون كما عليه الجمهور فردوه إلى قوله تعالى:﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2]، فَردُّوا مَا اخْتلفُوا فِيهِ إِلَى مَا أَجمعُوا عَلَيْهِ قَوْله نوله ونصله[3].

<u>وهذا التوجيه المعنوي</u> للقراءتين له دلالة سياقية من حيث الحال والمقال، لما فيه من رسم صورة الالتفات الواقعة بين صورتين لفعل تعودان لضمير واحد، وإنما عبَّر بالاسم الظاهر في سياق العمل ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ دلالة على الإخلاص في العمل ، والبعد به عن شوائب الرياء والسمعة، لما في لفظ الجلالة من صفات جلال داعية للرهبة والخشية، وصفات جمال داعية للرجاء وطلب الثواب العظيم، وهذا يتلاءم والسياق المقالي بالتعبير بالاسم الظاهر، كما أنه عبر بطريق الغيبة في مقام الحديث عن العمل لبيان ما ينبغي أن يكون عليه العبد في حالته وهو منفرد بنفسه مع الله فكأنه غاب عن الناس واستحضر عظمة الله المتمثلة في اسمه سبحانه ﴿ٱللَّهِ﴾ فخلا قلبه عن كل ما سواه والتقى بمولاه فناسب أن يخاطب بأسلوب التكلم الدال على عظمة الفعل والمفعول لعظمة الفاعل تشريفا

(١) كتاب السبعة في القراءات:٢٣٧، النشر في القراءات العشر ٢/٢٥١.

(٢) سورة النساء : آية : ١١٤ .

(٣) حجة القراءات : ٢١١ ، ٢١٢ .

لـه، وتعظيمـا لشـأنه، والمعنـى مـن عبـدنا بـإخلاص فـي مقـام الغيـوب، واستحضـر عظمتنـا مـع وجـود الحجـب، وصـل إلينـا بقلبـه، ومـن وصـل بقلبـه حـدثناه حـديث الحاضر المتكلم فناسب فسوف نؤتيه، تحقيقا للوعد، ورفعا للحجب، وطمأنينـة فـي النفس، وهذا ما لا يوجد في قراءة الياء ﴿يُؤتِيهِ﴾ .

وقد يقع في نفس القارئ سؤال بين آيتين متشابهتين إلا أن القراء اتفقوا في واحدة قراءة ، واختلفوا في الثانيـة قراءة وترتيلا ، حيث إنهم اتفقوا على حرف واحد وهو التعبير بصورة الالتفات من الغيبة إلى التكلم فـي قولـه تعالى ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1]، واختلفوا في آية الباب على ما فيه صورة الالتفات من الغيبة للتكلم بين من يقرأها بالنون الفوقية، ومن يقرأها بالياء التحتية ، وذلك لأنـه لما بعد لفظ الجلالـة ﴿ٱللَّهِ﴾ فـي العمل وطـال الكـلام ناسـب أن يـأتي بلفـظ المتكلم تذكيرا واستحضارا قطعا.

أما فـي آيـة البـاب ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فقد كان لفظ الجلالة قريب الذكر لفظا، مستحضرا في الذهن معنى اختلف بين الحضور والغيبة اعتمادا على ذكره لفظا، قال صاحب النشر:"واختلفوا فـي:﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فقرأ أبو عمرو وحمزة وخلف ﴿يؤتيه﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالنون، واتفقوا علـى الحـرف الأول، وهـو ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ أنـه بـالنون لبعد الاسم العظيم عن "فسوف يؤتيه " فلم يحسن فيه الغيبة كحسنه في الثاني لقربه"[2]، وقال

(١) سورة النساء : آية : ١١٤ .

(٢) النشر في القراءات العشر: ٢/ ٢٥١ ، ٢٥٢ .

أبو حيان: "وقرئ بالنون على سبيل الالتفات، ليناسب ما بعده من قوله: نوله ما تولى ونصله فيكون إسناد الثواب والعقاب إلى ضمير المتكلم العظيم، وهو أبلغ من إسناده إلى ضمير الغائب. ومن قرأ بالياء لحظ الاسم الغائب في قوله: ابتغاء مرضاة الله، وفي قوله: ابتغاء مرضاة الله دليل على أنه لا يجزي من الأعمال إلا ما كان فيه رضا الله تعالى، وخلوصه لله دون رياء ولا سمعة".(١)

وإنما استحق صاحب هذا العمل الأجر العظيم؛ لتجاوز نفع تلك الأعمال غيره بالعمل الصالح الظاهر فتنتفع الجماعة مع انتفاع الفرد، فإن أفضل الأعمال ما كانت منفعته تتعدى صاحبها إلى غيره ففضيلة الصدقة يتعدى نفعها إلى من تصل إليه، " وهو هنا لا يكتفي بأن يكون المرء صالحا في نفسه، بل لا بدّ أن يكون عضوا نافعا في جماعته، وقوة عاملة فيها، فهو يتصدق، ويأمر غيره بالصدقة، ويصلح بين الناس ويأمر غيره بالإصلاح بينهم" (٢).

ومما هو من الباب قوله تعالى :﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٣).

قَرَأَهُ الْجُمْهُورُ﴿وليجزين﴾ بِيَاءِ الْغَيْبَةِ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ وَمَا بَعْدَهُ، فَهُوَ النَّاهِي وَالْوَاعِدُ فَلَا جَرَمَ كَانَ هُوَ الْمُجَازِي

(١) البحر المحيط في التفسير : ٤ / ٦٦ .

(٢) من بلاغة القرآن : أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي : صـ ٢٥٠- الناشر: نهضة مصر – القاهرة- عام النشر: ٢٠٠٥.

(٣) سورة النحل : آية : ٩٥ ، ٩٦

عَلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَقَرَأَهُ ابْنُ كَثِيرٍ وَعَاصِمٍ بِنُونِ الْعَظَمَةِ[1]، على التفات من طريق الغيبة إلى التكلم فهو إخبار الله تعالى عن نفسه، وحجتهم إِجْمَاعهم على قَوْله فِي الْآيَة بعْدهَا ﴿ولنجزينهم ﴾ بالنُّون، وفي قراءة﴿وليجزين ﴾ إخبار عن الله تعالى فمرجع الضمير فيهما واحد، وحجتهم ذكر الله قبله وَهُوَ قَوْله ﴿وَمَا عِنْد الله بَاقٍ ﴾، فَإِذا عطفت الْآيَة على مثلهَا كَانَ أحسن من أَن تقطع مِمَّا قبلهَا[2]، وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم ﴾ جزاء الصبر الفوز بالطّلبة، والظّفر بالبغية، ومآلهم فى الطلبات يختلف: فمن صبر على مقاساة مشقة فى الله. فعوضه وثوابه عظيم من قبل الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[3]، ومن صبر عن إتباع شهوة لأجل الله، وعن ارتكاب هفوة مخافة لله فجزاؤه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾[4]، ولما كان الجزاء للصبر على هذه الدرجة من العظمة وعلو المنزلة ، بحيث لا يحدها حد ، ولا يقف على مقداره عليم ناسب أن يخبر عنه بلفظ العظمة والفخامة.

وقوله عز وجل: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ ﴾ فيه وجهان:

(١) ينظر : كتاب السبعة في القراءات:٣٧٥، النشر في القراءات العشر: ٢/ ٣٠٥

(٢) ينظر : حجة القراءات : ٣٩٣ ،

(٣) سورة الزمر : آية : ١٠ .

(٤) سورة الفرقان : آية : ٧٥ ، وينظر: لطائف الإشارات = تفسير القشيري : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري :٣١٨/٢- المحقق: إبراهيم البسيوني- الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر- الطبعة: الثالثة

أحدهما: يريد به أن الدنيا فانية، والآخرة باقية، والثاني: أن طاعتكم تفنى وثوابها يبقى[1]، وهذا الكلام جرى مجرى التذييل لما قبله، وأرسل إرسال المثل فيحمل على أعم، ولذلك كان ضمير عندكم عائدا إلى جميع الناس بقرينة التذييل والمثل، وبقرينة المقابلة بما عند الله، أي ما عندكم أيها الناس ما عند الموعود وما عند الواعد، لأن المنهيين عن نقض العهد ليس بيدهم شيء. [2]،

وإنما عبر في صدر الكلام بطريق الغيبة في قوله: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ وقوله: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ بالاسم الظاهر دون ضمير التكلم للتنويه بشأن ما أسند إليه من خصال حيث أضيفت إلى الاسم الجليل لما فيه من التذكير بأنه حقيق بأن لا يكفر بآياته ، ولا يحيد الإنسان عنه، ولا يزين له الشيطان عمله فيضل عن السبيل، لأنه مهما أوتي من غرض زائل، وإن طال الأمد وجلّ العدد، فخزائن الله باقية لا تفنى فيده سخاء لا يغيضها عطاء الليل والنهار، ومن ثم ناسب التعبير بلفظ الجلالة صريحا لبث روح الطمأنينة، وازدياد الإيمان في القلوب بأن عطاء الله فاق أي نعيم زائل فمن صبر على ذلك وصابر استحق الثواب الجزيل، والأجر العظيم، ولذلك كان التعبير بطريق التكلم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ﴾ بالنون الموضوعة للتعظيم والتفخيم من قبيل إخبار الله عن نفسه، وفي هذا تأكيد على البشارة، وإقرار بالوعد، وتثبيت للخبر في عقل المخاطب وقلبه ؛ فنقل الوعد من غير واعده قد يقع في نقله شك، وتسكن في القلب ريبة، أما حين يكون الوعد من المتكلم مباشرة، فهذا أدعى لقبوله، والوثوق في تحققه،

(١) ينظر : تفسير الماوردي = النكت والعيون – أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي : ٢/ ٢١٢ – المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم– ط: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.بدون.

(٢) ينظر : التحرير والتنوير :١٤ : ٢٧٢ – .

لاسيما وأنه وقع من الواعد مباشرة ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] .

واللام في قوله:﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ هي الموطئة، أي: لنجزينهم بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكليف وجهاد الكافرين والصبر على ما ينالهم منهم من الإيذاء بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات.

قيل: وإنما خص أحسن أعمالهم، لأن ما عداه وهو الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعة وقيل: المعنى : ولنجزينهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم[2] ، وإنما استحقت تلك الفئة من الناس الوعد بالثواب العظيم ، المؤكد بالسياقين الحالي والمقالي معا؛ لكونهم "صَبَرُوا على ما فوتوا من الأمتعة الفانية والأعراض الدنية الدنيوية بسبب ثباتهم وتقررهم على الأمور الأخروية ولم ينقضوا العهود والمواثيق المتعلقة بالدين القويم وبالجملة لم يستبدلوا الأعلى الباقي بالأدنى الفاني والآجل الدائم بالعاجل الزائل الزائغ وقد لحقهم بسبب ذلك ما لحقهم من المحن والشدائد العاجلة وضاع عنهم ما ضاع من لذاتها وشهواتها فصبروا على جميعها ولأعطيناهم أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ يعنى لنجزيهم ونثيبهم بجزاء أحسن وأوفر من مقتضى عملهم لوفائهم على عهودنا ومواثيقنا وجريهم بمقتضى أمرنا

(١) سورة الروم : آية : ٦

(٢) ينظر : فتح القدير – الشوكاني : ٣/ ٢٢٩.

ونهينا"[١] ، وفى الآية عدة جميلة باغتفار ما عسى أن يكون قد فرط منهم أثناء ذلك من جزع يعتريهم بحسب الطبيعة البشرية[٢] .

ومما هو من باب الوعد الحق، وكان التأكيد فيه بأسلوب الانتقال من حديث الغيبة إلى حديث التكلم تعظيما وتفخيما قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [٣]

قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ ﴿ فَسَنُؤْتِيهِ ﴾ بِنُونِ الْعَظَمَةِ عَلَى الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ، وَقَرَأَهُ الجمهورَ بِيَاءِ الْغَيْبَةِ ﴿فَسَيُؤْتِيهِ ﴾ عَائِدًا ضَمِيرُهُ عَلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ".[٤] ، قال الأزهري: من قرأ بالنون أو الياء فالفعل للَّه عزَّ وجلَّ [٥] وحجتهم في ذلك أن الله تعالى أخبر عن نفسه [٦] .

وسياق الآيات قائم على بيان فضل عطاء الله تعالى للنبي – ﷺ – وصحابته الكرام ، جزاء ما قدموه من تضحيات بالنفس والمال لرفعة دين الله، وهذا النسق القرآني المعجز قائم على التعظيم والتفخيم من أول لفظة في السورة الكريمة

---

(١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية – : نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان صـ ٤٣٧ الناشر: دار ركابي للنشر – الغورية، مصر– الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م.

(٢) تفسير المراغي للشيخ أحمد بن مصطفى المراغي :١٤ / ١٣٨،– مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر– الأولى، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م.

(٣) سورة : الفتح – آية : ١٠

(٤) كتاب السبعة في القراءات:٦٠٣ ،إتحاف فضلاء البشر: ٥٠٩ .

(٥) معاني القراءات : ٣ / ١٩

(٦) حجة القراءات: ٦٧٢ .

، والتي جاءت في صورة المتكلم تعظيما وتفخيما من شأن العطية والمعطى له، وهذا متحقق في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (١)، والفتح المراد إما أن يراد به فتح مكة، وإما أن يراد به فتح الصلح الذي حدث في الحديبية ويكون تشبيها له بفتح مكة لأنه توطئة له (٢)، وإن كان الفتح وقع بعد الصلح، ولكنه من الوعد الذي يتيقن حدوثه، فكأنه والواقع سواء، فعبر بالماضي عما سيحدث بعد، وهذا لا يحدث إلا من عظيم قادر على إدراك الأمور وإيجادها، ولذا ناسب أن يأتي التعبير عن هذا الخبر بطريق التكلم الدال على العظمة والفخامة﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ ، ثم تتابعت الأفعال المسندة إلى لفظ الجلالة ظاهرا إشارة إلى أنها لا تخرج إلا من منافذ العزة ، ومنابع القوة والإرادة النافذة فقال : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾(٣) ...﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤)...﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٥)، ثم ثم عاد إلى التكلم المخبر عن نفسه بقوله ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾(٦) ثم انتقل إلى الغيبة ثانية بقوله: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾. (٧).

---

(١) سورة : الفتح – آية : ١

(٢) ينظر : التحرير والتنوير :٢٦ / ١٤٥ .

(٣) سورة : الفتح – آية : ٢

(٤) سورة : الفتح – آية : ٤

(٥) سورة : الفتح – آية : ٤ ، ٧

(٦) سورة : الفتح – آية : ٨

(٧) سورة : الفتح – آية : ٩

والمتأمل في هذا السرد القرآني يجد أن السياق عندما تتحقق فيه العطية من الله تعالى لنبيه – ﷺ – يحدث التحول والانتقال من طريق الغيبة إلى طريق التكلم تعظيما لشأن النبي – ﷺ– وتفخيما لأمره، وتأكيدا على صدق ما وُعِدَ به؛ لكون الخبر لم ينقل عن متكلم، وإنما صدر من منافذ عزته أمرا مباشرا إلى النبي – ﷺ– وفي هذا من تعظيم الإنعام وتفخيمه ما لا يوجد في غيره ، كما أنه تعظيم وتفخيم للخبر نفسه، فحين يكون المخبِرُ بالخبر عظيما ، فإن المخبَرَ به لا محالة عظيم ولذا قال النبي– ﷺ– تعقيبا على نزول هذه الآية : « لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ، لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ »، ثُمَّ قَرَأَ:﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [1].

وفي سياق تعظيم الأمر شرع في الغرض الأصلي من هذه السورة، وهو قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾، وهذه الجملة مستأنفة، وأكد بحرف التأكيد للاهتمام، وصيغة المضارع في قوله: ﴿يُبَايِعُونَكَ ﴾ لاستحضار حالة المبايعة الجليلة لتكون كأنها حاصلة في زمن نزول هذه الآية مع أنها قد انقضت ... والحصر المفاد من إنما حصر الفعل في مفعوله، أي لا يبايعون إلا الله وهو قصر ادعائي بادعاء أن غاية البيعة وغرضها هو النصر لدين الله ورسوله فنزل الغرض منزلة الوسيلة فادعى أنهم بايعوا الله لا الرسول[2] .

---

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري –: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي : كتاب الغزوات – باب عزوة الحديبية حديث رقم (٤١٧٢) عن أنس بن مالك – المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر –: دار طوق النجاة – الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٢) التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٥٨ .

وقراءة ﴿بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ بضم الهاء في ﴿عَلَيْهُ﴾ تعظيما لمن يعود عليه الضمير، وتلك القراءة وما سبقها من معان ترشيح لقراءة ﴿فسنؤتيه﴾ بالالتفات من الغيبة في التعبير بلفظ الجلالة ظاهرا إلى التكلم المخبر عن نفسه، وحين يتحدث المنعم مخبرا عما أنعم به، يتناسب معه التعبير بما يحمل العظمة والفخار على عادة الملوك في الإخبار عن أنفسهم، ونون العظمة في قراءة ﴿فسنؤتيه﴾ بها سعة للمعنى، وتحمل تلاؤما بين السياق المقالي، وما يتطلبه المقام، فالأجر العظيم يتناسب مع حديث العظمة والفخار من المتكلم وهو الله – سبحانه وتعالى – والأجر العظيم هو الجنة، وما يكون فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" (١).

ومما هو من تغاير القراءات وكان الالتفات فيه من طريق الغيبة إلى التكلم قوله تعالي ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (٢) ، ومما هو مثله لفظا ومعنى قوله تعالى ووقع فيه التغاير القرائي راسما صورة الالتفات من الغيبة إلى طريق التكلم تعظيما وتفخيما لشأن الحديث عن ثواب أهل الجنة ، وعظم ما ينالونه من أجر قوله تعالى :﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

(١) تفسير روح المعاني – الألوسي : ١٣ / ٢٥٢ .

(٢) سورة التغابن : آية : ٩

مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾[1] .

فقد قرأ الجمهور في الآيتين بياء الغيبة على مقتضى الظاهر، وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿نُكَفِّرْ﴾ ﴿وَنُدْخِلْهُ﴾ بنون العظمة[2] على الالتفات من الغيبة إلى التكلم لأن مقام الوعد مقام إقبال فناسبه ضمير التكلم، الدال على عظمة المتكلم، الوحي بتحقق وعده لعظمة من وعد، وتناسب من خلال المعنى للدلالة على عظم الموعود به وهو الفوز بجنة ذات صفات تسر الناظرين، وتقر عين المؤمنين بكونها ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾وزيادة على هذا الوعد بالجنة جاء القيد بقوله ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ﴾ زيادة تفضل، وحسن ثواب جزاء ما قدم من عمل صالح في الدنيا، ثم جاءت جملة التذييل في آية التغابن – دلالة على عظم ما وعد به المعظم نفسه متكلما ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ومن ثم كانت قراءة ﴿نُكَفِّرْ﴾ ﴿وَنُدْخِلْهُ﴾ من قبيل تعظيم المتكلم نفسه على عادة الملوك تعظيما وتفخيما من شان ما أسند إليه من عمل ، وما أصاب المؤمن من ثواب عظيم ، وأجر كبير .

أما التعبير بطريق الغيبة﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بإسناد الأفعال إلى ضمير يعود على الله تعالى فعلي مقتضى الظاهر؛ وذلك للتأكيد والتقرير للمعنى الموعود به ، وخيريته وعظمته في ذاته بسبب ما إسناده إلى عظيم في ذاته ، كما أن ضمير الجلالة يؤذن بعناية الله بهذا الفريق"[3]، وتلك العناية تستوجب عليه إتمام ما وعد به في الدنيا ، وهذا يتلاءم ومقام الحديث عما أعده

(١) سورة الطلاق: آية :١٠ – ١١

(٢) ينظر : السبعة في القراءات : صـ ٦٣٩ ،

(٣) التحرير والتنوير : ٢٨ / ٢٧٧ .

الله للمؤمنين الصالحين ، وعلى ذلك فإن القراءتين تؤديان الغرض المنوط بهما ، مع اتساع كل منها في المعنى ، فحمل الآية على معنيين متلائمين ، زيادة في وصف الأجر ، وتفخيما لأمر الثواب ، وما جاء مؤكدا بطريقين أُقوى وآكد مما جاء بطريق واحد ، " وعلمان خير من علم واحد" (١) .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ إفراد الضمير في هذه الآية في قوله: «يؤمن» وقوله: «يعمل» وقوله: «يدخله» وقوله: « له» . وجمع في قوله: «خالدين» ، والجواب: أن الإفراد باعتبار لفظ: «من» والجمع باعتبار معناها وهو كثير في القرءان العظيم. وفي هذه الآية الكريمة رد على من زعم أن مراعاة المعنى لا تجوز بعدها مراعاة اللفظ لأنه في هذه الآية راعى المعنى في قوله: «خالدين» ثم راعى اللفظ في قوله: قد أحسن الله له رزقا. (٢)

<u>ومما هو من هذا الباب وكان التغاير القرائي فيه راسما صورة الالتفات من الغيبة إلى التكلم ترهيبا وتخويفا</u> اصطفاء الفعل المضارع (يحشر) مصدرا بالياء أو النون تغايرا قرائيا في مظان متعددة في آي الذكر الحكيم، ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ

(١) هذا مثل معناه: لأن تضيف على علمك الأول علماً حادثا خير من اكتفائك بمعرفتك. وأصله أن رجلاً وابنه سلكا طريقا، فقال الرجل يا بني: سل لنا عن الطريق: فقال الولد: إني به عالم، فقال الرجل: يا بني: "علمان خير من علم واحد" فصارت مثلاً. [ينظر: مجمع الأمثال للميداني: ٢٥٢/٢ تحقق محمد محي الدين عبد الحميد ط : مصطفى البابي الحلبي ، مصر } و: ينظر المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني : ٢٩١

(٢) ينظر : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب– : محمد الأمين الجكني الشنقيطي :٢٤٠–: مكتبة ابن تيمية – القاهرة: الأولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م

جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

قَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿ نَحْشُرُهُمْ ﴾ بِنُونِ الْعَظَمَةِ عَلَى الِالْتِفَاتِ، وَقَرَأَهُ حَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ، – بِيَاءِ الْغَيْبَةِ–[2]. وقوله تعالى في سورة يونس : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾[3]، كلهم قَرَأَ ﴿وَيَوْم نحشرهم ﴾ بالنُّون غير حفص عن عاصم ﴿وَيَوْم يحشرهم ﴾ بِالْيَاءِ. [4] ، وقوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [5] ، فَقَرَأَ ابْن كثير وَحَفْص عَن عَاصِم ﴿ وَيَوْم يحشرهم وَمَا يعْبدُونَ ﴾... ﴿فَيَقُول﴾ بِالْيَاءِ فيهمَا جَمِيعًا، وَقَرَأَ نَافِع وَأَبُو عَمْرو وَحَمْزَة والكسائى وَعَاصِم فى رِوَايَة أَبى بكر ﴿وَيَوْم نحشرهم ﴾ بالنُّون ﴿فَيَقُول﴾ بِالْيَاءِ وَلَيْسَ عندى عَن أَبى بكر عَن عَاصِم فى ﴿ فَيَقُول ﴾ شىء، وروى عَيَّاش وَعبيد بن عقيل عَن هرون عَن أَبى عَمْرو وَأَبُو زيد والخفاف عَن أَبى عَمْرو ﴿وَيَوْم يحشرهم ﴾...﴿فَيَقُول﴾ بِالْيَاءِ مثل ابْن

(١) سورة الأنعام : آية :١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) كتاب السبعة في القراءات:٢٦٩، حجة القراءات : ٥٩٠

(٣) سورة يونس : آية :٤٣، ٤٤ .

(٤) كتاب السبعة في القراءات:٣٢٧ .

(٥) سورة الفرقان : آية :١٣ ، ١٧ .

كثير، وروى ابْن سَعْدَان عَن مُحَمَّد بن الْمُنْذر عَن يحيى عَن أَبى بكر عَن عَاصِم ﴿فَيَقُول﴾ بِالْيَاءِ، وَقَرَأَ ابْن عَامر ﴿وَيَوْم نحشرهم﴾ ...﴿فَنَقُول﴾ بالنُّون جَمِيعًا[1] ، وقوله في سورة سبأ :﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾[2]، قَرَأَ حَفْص ﴿يحشرهم جَمِيعًا ثمَّ يَقُول﴾ بِالْيَاءِ فيهمَا، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ ﴿نحشرهم جميعا ثمَّ نقُول﴾ بالنُّون فيهمَا [3].

تلك جملة من الآيات القرآنية الكريمة، والتي تنوع فيها المضارع وتحول بين الغيبة والتكلم في صورة الالتفات، فالتعبير بالفعل المضارع مصدرا بالياء بأسلوب الغيبة﴿وَيَوْم يحشرهم﴾ بِالْيَاءِ من مجيء الكلام على أصله، إتباعا للسياق المقالي للآيات الكريمة، والتعبير به بِنُونِ الْعَظَمَةِ ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ عَلَى الِالْتِفَاتِ، والضمير في كل القراءات يعود على واحد ، فالحاشر في كل هو الله تعالى، وقد جاءت تلك الالتفاتات في معرض الحديث عن صورة من الصور الغيبية، ومشهد من مشاهد القيامة وهو الحشر، وليس الحديث عن جميع الخلق، وإنما لطائفة غاب عقلها، وشرد هواها، واتخذت مع الله آلهة أخرى، والحشر موقف عظيم هوله، شديد وقعه، مهيب صورته، وتلك صورة تحتاج إلى سياق مقالي دال على العظمة، والسيادة المطلقة، والتملك التام ليوم القيامة وما يحدث فيه من مواقف ومشاهد، وهذا يتلاءم والتعبير بالفعل المضارع مصدرا بنون العظمة، لما تحمله من معنى التعظيم للفعل بتعظيم فاعله، والالتفات من الغيبة إلى التكلم في مقام الوعيد – كما في تلك الآيات

(١) كتاب السبعة في القراءات:٤٦١ ، ٤٦٢.

(٢) سورة سبأ : آية :٣٩ ، ٤٠ .

(٣) كتاب السبعة في القراءات : ٥٣٠

– إضافة إلى معنى التعظيم والتفخيم – فهو إشعار بالتهديد والترهيب من الوقوع في شرك هذا الفعل المؤدي إلى الشرك بالله صراحة.

ووجه القراءة أنه أخبر عن نفسه تعالى على المتعارف من طريقة الملوك إذا أخبروا عن أنفسهم ، اتساعا للمعنى ، وتأسيسا لمعنى التعظيم والتفخيم ما لا يوجد في التعبير بالغيبة، زيادة على معنى الترهيب والتخويف من هول الموقف ذاته، سواء كان في سياق الغيبة أو التكلم ، كما أن في قراءة الغيبة ﴿وَيَوْم يحشرهم ﴾ من التقريع والتبكيت والطرد من رحمة الله ، فكأن الله تعالى خاطبهم بسياق الغيبة لنفي تصور الجمع مع الذات الإلهية وما يعبدون من دون الله في موضع واحد ، وإن كان الجميع سيقع عليه مواقف القيامة من البعث والحشر والنشر والوقوف للسؤال والذهاب إما للجنة أو النار، والضمير في كل الآيات في القراءتين : عائد على الذين افتروا على الله الكذب، أو كذبوا بآياته ، فالضمير عائد على المشركين وأتباعهم، وما يعبدونه من دون الله كآلهتهم المزعومة ، وأصنامهم التي لا تضر ولا تنفع، ولا تغني من الله شيئا ألا ترى إلى قولهم ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ (١).

ومنه في باب الوعيد قوله تعالى :﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ

(١) سورة الصافات : آيات :٢٢ – ٢٤ . وينظر البحر المحيط ٤ / ٤٦٤ بتصرف

عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾[1] .

قَــرَأَ الْجُمْهُــورُ أَلْفَــاظَ ﴿ يَخْسِفَ ...يُرْسِلَ ...يُعِيدَكُمْ...فَيُرْسِلَ... فَيُغْرِقَكُم ﴾ خَمْسَتُهَا بِالْيَاءِ التَّحْتِيَّةِ، وَقَرَأَهَا ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو بِنُونِ الْعَظَمَةِ عَلَى الِالْتِفَاتِ مِنْ ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [2]، إِلَى ضَمِيرِ التَّكَلُّمِ. وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ ﴿فَتُغْرِقَكُمْ﴾ بِمُثَنَّاةٍ فَوْقِيَّةٍ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الرِّيحِ عَلَى اعْتِبَارِ التَّأْنِيثِ، أَوْ عَلَى الرِّيَاحِ عَلَى قِرَاءَةِ أبي جَعْفَر"[3]، فالياء والنون في المعني سيَّان؛ لأن المشيئة لله عزَّ وجلَّ في القراءتين، والمعنى: أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله، وفي الرخاء يعرضون عنه، ثم أنكر سبحانه عليهم سوء معاملتهم هذه، فبين لهم أنه قادر على هلاكهم في البر وإن سلموا من البحر، فحذرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر، فعقابه سبحانه واقع على أي حالة هم فيها، لأنه غير قاصر على مكان دون آخر، أو حالة دون أخرى لعظمته فهو قادر على إيقاع العقاب بأنواعه على حسب إرادته، فلا يركن أحد إلى رخائه.

وقراءة النون التي للعظمة يخبر الله جلّ وَعز فيها عَن نَفسه وحجتهما لقَوْله ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ كَأَنَّهُ لما أَتَى الْكَلَام عَقِيبه بِلَفْظ الْجمع جعل مَا قبله على لَفظه ليأتلف نظام الْكَلَام على لفظ وَاحِد، وقراءة الْيَاءِ إِخْبَار عَن الله، وحجتهم أَن الْكَلَام ابتدئ بِهِ بالْخبر عَن الله بِلَفْظ التَّوْحِيد فَقَالَ : ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى

(١) سورة الإسراء : آية : ٦٨، ٦٩.

(٢) سورة الإسراء : بعض آية : ٦٧

(٣) كتاب السبعة في القراءات:٣٨٣ ،النشر في القراءات العشر: ٢/ ٣٠٨ .

لَكُمُ ٱلْفُلْكَ ﴾ وَقَالَ: ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ فَجعلُوا مَا أَتَى عَقِيبه من الكلام جاريا على معناه لأن القصة واحدة والكلام يتبع بعضه بعضا.(١).

والحديث هنا عن ذكر بعض نعم الله تعالى على الإنسان التي يجب عليه مقابلتها بالشكر لا الكفر، ومن هنا كان السر البلاغي في الالتفات من الغيبة إلى التكلم الواقع في هذا التغاير القرائي راجعا إلى أن المقام تهديد وتخويف من عاقبة أمر محظور فعله، والتهديد من المتكلم المخبر عن نفسه بنون العظمة أوقع في النفس من التهديد المخبر عنه بواسطة الغيبة، حيث إن المواجهة في التهديد تتسم بالشدة، ومن ثم يكون التخويف به أوقع، والترهيب فيه أشد، ومن ثم جاءت تلك الأفعال خمستها بالنون الدالة على عظمة المتكلم، إشارة على قدرته في إيقاع ما توعد به، وهذا أوقع في النفس، وأشد تأثير في القلب، مع ما تحمله قراءة الياء من معاني التخويف والترهيب من إسناد الأفعال إلى ضمير الغيبة العائد على الله تعالى ، ومبالغة في التعظيم والتفخيم من شأن الأمر، وجريا للسياق المقالي مع السياق الحالي وما هو مفهوم من الآيات، حيث إن من بلغ الغاية في العظمة، أو تحدث بنون العظمة لا يخشى عاقبة ما يفعله ، لعدم وجود من يرده عن أمره، ومن ثم يخبرنا العظيم سبحانه بطريق الفخامة والعزة يكسوها قوة وشدة مقاما ومقالا، في سورة جملة مذيلة كأنها تعليل وتوضيح للتحول من طريق الغيبة إلى أسلوب التكلم سيرا على قراءة من قرأ الأفعال الخمسة بالنون، ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾، أي مطالباً يطلبنا بثأركم بعد إهلاككم بغرقكم، فلما كان القدر تعلقهم به من بعد الموت والتلف بالإغراق ناسب ذلك لأنه تسمية هذا المقدر الطالب تبيعاً، لأنه يتبع

(١) حجة القراءات : ٤٠٧ .

بعد الموت، كما يسمى طلب ذمة من مات تبعاً وإتباعًا،(١)، أي لن تجدوا من يتبع ثأركم أو ينصركم طالبا حقكم ، وذلك لأن الله لم يظلمكم مثقال ذرة، والآيات التي وقع فيها هذا التغاير القرائي وكان سبيلا لرسم صورة الالتفات من طريق الغيبة إلى طريق التكلم تفريع على جملة أعرضتم، وما بينهما اعتراض، وفرع الاستفهام التوبيخي على إعراضهم عن الشكر وعودهم إلى الكفر،(٢)، وقد مَثَّلَ هذا الاستفهام الإنكاري التوبيخي الواقع في قوله: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ ﴾ وفي قوله﴿ أَمْ أَمِنتُمْ ﴾ يحتاج إلى مواجهة المستفهِم المنكر لهم بذلك، تسجيلا عليه، كما أن مقام التوبيخ المفهوم من الاستفهام الإنكاري، الأولى فيه أن يقع من المتكلم لا أن يأتي بطريق الغيبة، قصدا للإقرار، وطلبا للشعور بالذنب، زيادة على ذلك بيان ما تفضل عليهم حال الرخاء والسعة والتسجيل عليهم ذلك في موضع لا يستطيع فيه أحد الإنكار أو التكذيب للخبر، ولا يكون ذلك تاما إلا إذا قام به المنعم ذاتا، فكانت قراءة أسلوب التكلم بنون العظمة الدالة على المواجهة زيادة في الإنكار عليهم وتكذيبهم ومبالغة في التوبيخ والتقريع بسبب إعراضهم عن الشكر وعودهم إلى الكفر بعد ما أنعم الله عليهم .

ومما هو من الوعيد الشديد قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (٣).فقد قَرَأَ الْجُمْهُورُ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِتَحْتِيَّةٍ فِي أَوَّلِهِ، وَالضَّمِيرُ الْمُسْتَتِرُ عَائِدٌ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي قَوْلِهِ: أيام اللَّهِ. وَقَرَأَهُ ابْنُ عَامِرٍ

(١) ينظر : ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل– أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي: ٢ / ٣١٤ – وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي– الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان

(٢) ينظر : التحرير والتنوير – الطاهر بن عاشور : ١٥ / ١٦٢ .

(٣) سورة الجاثية : آية : ١٤ .

وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ بِنُونِ الْعَظَمَةِ فِي أَوَّلِهِ[1] عَلَى الِالْتِفَاتِ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾[2]، فقد قرأ قَرَأَ الْجُمْهُورُ نَسْلُكْهُ بِنُونِ الْعَظَمَةِ فَفِيهِ الْتِفَاتٌ. وَقَرَأَهُ عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ وَخَلَفٌ يَسْلُكْهُ بِيَاءِ الْغَائِبِ[3]، فَالضَّمِيرُ الْمُسْتَتِرُ يَعُودُ إِلَى ربّه .

وقد اجتمع الوعد والوعيد في التغاير القرائي راسما أسلوب الالتفات من الغيبة للتكلم بنون العظمة تعظيما وتفخيما للفعل وعدا ووعيدا في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾. [4]

قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ ﴿ نُدْخِلْهُ ﴾ وَ﴿ نُعَذِّبْهُ ﴾ بِنُونِ الْعَظَمَةِ عَلَى الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ يُدْخِلْهُ بِالْيَاءِ التَّحْتِيَّةِ [5] جَرْيًا عَلَى أُسْلُوبِ الْغَيْبَةِ بِعَوْدِ الضَّمِيرِ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ"لما أوعد على التخلف نفي الحرج عن هؤلاء

(١) ينظر : كتاب السبعة في القراءات:٥٩٤ ،النشر في القراءات العشر: ٢/ ٣٧٢ ، حجة القراءات: ٦٦٠ ، إتحاف فضلاء البشر : ٥٠٢ .

(٢) سورة : الجن : آية : ١٦ . ١٧ .

(٣) ينظر: كتاب السبعة في القراءات:٦٥٦،النشر في القراءات العشر : ٢ / ٣٩٢، حجة القراءات: ٦٢٩

(٤) سورة : الفتح : آية : ١٦ . ١٧ .

(٥) كتاب السبعة في القراءات:٦٠٤ ، إتحاف فضلاء البشر: ٥١٠ .

المعذورين استثناء لهم عن الوعيد ، وقوله ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ فصل الوعد وأجمل الوعيد مبالغة في الوعد لسبق رحمته، ثم جبر ذلك بالتكرير على سبيل التعميم فقال:﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً﴾ إذ الترهيب ها هنا أنفع من الترغيب(١)؛ لأنّ المقام يقتضيه وبه ينزجر المرء عن المعاصي فيفوز بالسعادة العظمى، والترغيب ربما ضر بتأديته للتكاسل(٢).

وتكمن بلاغة التعبير بالالتفات من الغيبة إلى التكلم في قراءة نافع ﴿نُدْخِلْهُ﴾ وَ﴿نُعَذِّبْهُ﴾ بِنُونِ الْعَظَمَةِ لكون المقام مشتملا على ثواب وعقاب في وقت واحد لطائفتين مختلفتين، وكأن العدول عن طريق الغيبة إلى طريق التكلم يرسم صورة محاكمة القاضي فيها هو الله تعالى – بعزه وسلطانه، والطرف الأول:﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ والطرف الثاني: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي يعص الله تعالى، ولا يتبع سنة نبيه محمد – ﷺ– أو من تخلف عن الخروج للقتال مع رسول الله – ﷺ– دون عذر من الأعذار المذكورة في قوله:﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ومن يحكم بين متناقضين متضادين عملا وجزاء لابد من حضوره بعظمته وسلطانه، فكانت نون العظمة الدالة على المواجهة والمشاهدة داعية على اطمئنان الطرف الأول، وبث الشعور بالسعادة والسرور في قلبه لتيقنه بتحقيق وعد الله المسبق والذي يتمثل في قوله :﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ

(١) تفسير البيضاوي – أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٥ / ١٢٩.

(٢) حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي : ٨ / ٦١ دار النشر: دار صادر – بيروت .

وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ تفصيلا وتوضيحا له للثواب الجزيل، والأجر العظيم، وعلى الطرف الآخر يقع الشعور بالخزي والندامة في قلب من فرَّط في جنب الله وتخلف عن الركب ، وتولى عن طاعة الله ، وامتثال أوامر رسول الله – ﷺ–، وليس بخفي أن الشعور بالخزي والندامة في حضور من بيده الثواب والعقاب أشد وقعا، وأقوى أثرا في النفس من الحديث بطريق الغيبة، وتلك سعة في المعنى زيادة عما في قراءة الجمهور بالياء من معاني الترغيب والترهيب، والتأكيد على العاقبة في الأمرين بذكر الضدين المتقابلين معا ثوابا وعقابا، وهي صورة بديعية معنوية حسنة أضفت على الأسلوب جمالا وأكسبته رونقا وبهاء، وزادت المعنى تأكيدا وتقريرا حيث إن تصور أحد الضدين فيه تصور للآخر وعلى هذا فالذهن عند ذكر الضد يكون مهيأ للآخر، ومستعدا له ، فإذا ورد عليه تأكد لديه ، واستقر بداخله. وبلاغة هذه الصورة لم تقف عند كونه مجرد جمع بين المعاني المتقابلة والألفاظ المتضادة فحسب، فهذه حلية شكلية، وزخرفة لفظية وإنما تظهر بلاغتها قوية بما حققه من إيضاح المعنى وإظهاره وتأكيده وتقويته، وذلك لأنه من قبيل التنبيه على حالتين متناقضتين، أحدهما محببة للنفس مرغوب في حدوثها، وهي حالة العز والمجد والفخار بالفوز برضوان الله وجنته ، والأخرى موحشة للنفس مكروه وقوعها؛ لما في ذلك من ذل وانكسار، وضعة ومهانة للنفس والوعيد بالعذاب المقيم، ومثل هذا التعبير يزيد في النفس عناصر الهمة، ويقوي لديها صور التحفيز والتحريض على طاعة الله تعالى، ومحاربة الشيطان الداعي إلى الركون للدنيا، والخوف من لقاء العدو، زيادة عما في التقابل بن المعنيين من إيضاح المعنى وتأكيده ، وتقويته فى نفوس المخاطبين، لأن النفس عند ذكر الضد يقع لديها صورة الضد الآخر ويكون ذلك بمثابة ذكر المعنى مرتين، لأن "الطباق يستر في الأقسام تحت المقسم الذي يناط به الحكم تقريراً لشموله على سبيل

التفصيل وإرضاءً لطمأنينة النفس"[1].

ولا يفوتنا التنبيه . هنا . أن المفسرين المعنيين بتوجيهات التغاير القرائي طالما يستوقفنا نظرتهم الكلية إلى السياق في تحليل النص القرآني، وتلك النظرة التحليلية الكلية قد أرشدتهم إلى أن الربط بين القراءة القرآنية موضع الالتفات، وبين الحال والمقام من حيث الوعد وما يتطلبه من استعطاف وطلب الأنس للموعود، ومن حيث الوعيد وما يتطلبه المقام من توبيخ وتقريع وتخويف من مواجهة محسومة، وكلام قوي أخاذ خرج من ذات توصف بالكبرياء والعظمة، ومن ثم تطلب المقام الانتقال من حديث الغيبة إلى حديث التكلم بواسطة نون العظمة .

فجاء الالتفات من الغيبة إلى التكلم . لاسيما . نون العظمة . في مقام الوعد بغرض الاهتمام بالمتلقين ، وزيادة الاعتناء بهم بتشريفهم بالتكلم، وما يستتبعه ذلك من الدلالة على وفرة الحب، وجزالة الجزاء، فكل ما يصدر عن العظيم عظيم ، ولذلك قالوا: إن الإخبار (بالنون) في مقام الثواب والعقاب أبلغ من الإخبار(بالياء).

كما يأخذنا الالتفات من الغيبة إلى التكلم في مقام الوعيد إلى إحساس آخر غير الذي مضى،إذ يلقي في نفوس متلقيه . بالإضافة إلى معنى التعظيم والتفخيم . إحساسا بالتهديد والترهيب والتخويف من سوء العاقبة[2].

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية:. د/ عز الدين على السيد : صـ ٢٤ يتصرف ، ط دار أقرأ، الأولى ، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

(٢) ينظر : التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية : ٣٤٨ ، ٣٤٩ بتصرف ظاهر

المبحث الثالث

الالتفات من الخطاب للغيبة

وحده : التعبير عن المعنى بطريق الخطاب أولا، ثم العدول عنه إلى طريق الغيبة ، سواء عن طريق التعبير بالضمير أو بالاسم الظاهر القائم مقام الغيبة ؛ قصدا للإعراض على المخاطبين، ذما وتوبيخا ، وفضحا وتشهيرا بقبح صنيعهم، وفساد أخلاقهم، مع الإقبال على غيرهم مدحا وتشريفا ، وذلك ترجمة لمعنى قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾آل عمران: ٧٧

وقد كثر في باب القراءات القرآنية وقوع الالتفات من الخطاب للغيبة كثرة مطردة وظهر ذلك في كتب التفاسير والتي تعتني بهذا الباب عناية كبيرة والوقوف على بيان قيمته الفنية ، وسماته البلاغية في آي الذكر الحكيم من خلال تنوع القراءات القرآنية .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (١)

(١) سورة ال عمران : آيات : ٨٠- ٨٣ .

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿تَبْغُونَ﴾ و﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالتاء، وقرأهما حفص ويعقوب بالياء جميعا، إلا أن الحضرمي فتح الياء، وضمها حفص من قوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقرأ حمزة والكسائي بالتاء فيهما. وقرأ أبو عمرو: ﴿ يَبْغُونَ﴾ بالياء، و: ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالتاء ، قال أبو منصور: كل ما قرئ به من هذه الوجوه فهو جائز فى العربية. وأخبرني المنذري عن أبي العباس أنه قال: الاختيار في كله التاء؛ ليكون على الخطاب الأول، وكل جائز؛ لأن الحكاية تخرج على الخطاب كله، وعلى الغيبة كلها، وبعضها على الخطاب وبعضٌ على الغيبة، وهذا منها إن شاء الله. (١) ، و﴿ تَبْغُونَ﴾ بتاء الْخطاب فَهُوَ خِطَابٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ جَارٍ عَلَى طَرِيقَةِ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ آنِفًا: ﴿ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ﴾ .

وحجة من قرأ ﴿ يَبْغُونَ﴾ بالياء أن الخطاب قد انقضى بالفصل بينه وبين ذلك بقوله ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ثم قال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ فيكون الكلام نسقا واحدا، وحجة من قرأ ﴿تَبْغُونَ﴾ بالتاء قوله تعالى قبلها ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ﴾ فيكونون قد نسقوا مخاطبة على مخاطبة وقال قوم يجوز أن يكون ابتدأ خطابا مجددا على تأويل قل لهم يا محمد أفغير دين الله تبغون أيها المخاطبون فكان خطابا عاما لليهود وغيرهم من الناس ، وقرأ حفص {يبغون} بالياء جعله خبرا عن اليهود {وإليه يرجعون} بالياء أيضا يعني اليهود وقرأ الباقون بالتاء أي أنتم وهم(٢)، و قراءة من قرأ بِيَاءِ الْغَيْبَةِ﴿يَبْغُونَ﴾ فَهُيَ الْتِفَاتٌ مِنَ

(١) ينظر : معاني القراءات : ١ / ٢٦٨ .

(٢) ينظر : حجة القراءات : صـ ٧٠ .

الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ، قصدا للإعراض عنهم، لسوء فعلهم، وقبح طويتهم، وفساد حكمهم ، وذلك لما قالوه للنبي– ﷺ–:" وَاللَّهِ مَا نَرْضَى بِقَضَائِكَ وَلَا نَأْخُذُ بِدِينِكَ"، كما ورد في أسباب النزول، فقد روي عن ابْنِ عَبَّاسٍ: اخْتَصَمَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –ﷺ– فِيمَا اخْتَلَفُوا بَيْنَهُمْ مِنْ دِينِ إِبْرَاهِيمَ، كُلُّ فِرْقَةٍ زَعَمَتْ أَنَّهَا أَوْلَى بِدِينِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ–ﷺ– "كِلَا الْفَرِيقَيْنِ بَرِيءٌ مِنْ دِينِ إِبْرَاهِيمَ" فَغَضِبُوا، وَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا نَرْضَى بِقَضَائِكَ وَلَا نَأْخُذُ بِدِينِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾[1]، "إِعْرَاضًا عَنْ مُخَاطَبَتِهِمْ إِلَى مُخَاطَبَةِ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّعْجِيبِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَكُلُّهُ تَفْرِيعُ ذِكْرِ أَحْوَالِ خَلَفِ أُولَئِكَ الْأُمَمِ كَيْفَ اتَّبَعُوا غَيْرَ مَا أُخِذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدُ بِهِ. وَالِاسْتِفْهَامُ حِينَئِذٍ لِلتَّعْجِيبِ". [2] ، وجملة ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ في النظم معطوفة على مجموع الشرط والجزاء، الموجود في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾وقيل: على الجزاء فقط، وعطف الإنشاء على الإخبار مغتفر هنا عند المانعين، والهمزة على التقديرين متوسطة بين المعطوف والمعطوف عليه للإنكار، وقيل: إنها معطوفة على محذوف تقديره– أيتولون فغير دين الله يبغون[3].

---

(١) أسباب نزول القرآن – النيسابوري، :صـ ١١٣– ت: عصام بن عبد المحسن الحميدان – الناشر: دار الإصلاح – الدمام– الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م، وينظر : العجاب في بيان الأسباب – أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: ٢/ ٧٠٦ ، ٧٠٧.– ات: عبد الحكيم محمد الأنيس– الناشر: دار ابن الجوزي.

(٢) التحرير والتنوير : ٣ / ٣٠١ .

(٣) ينظر : روح المعاني للألوسي : ٢ / ٢٠٥ بتصرف .

والهمزة في قوله :﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ " للاستفهام والمراد استنكار أن يفعلوا ذلك أو تقرير أنهم يفعلونه، وموضع الهمزة هو لفظة يبغون تقديره: أيبغون غير دين الله؟ لأن الاستفهام إنما يكون عن الأفعال والحوادث، إلا أنه تعالى قدم المفعول الذي هو فغير دين الله على فعله، لأنه أهم من حيث إن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود الباطل، وأما الفاء فلعطف جملة على جملة وفيه وجهان أحدهما: التقدير: فأولئك هم الفاسقون، فغير دين الله يبغون، واعلم أنه لو قيل أو غير دين الله يبغون جاز إلا أن في الفاء فائدة زائدة كأنه قيل: أفبعد أخذ هذا الميثاق المؤكد بهذه التأكيدات البليغة تبغون؟" . (١)

وهذا الاستفهام الإنكاري يتلاءم وقراءة الغيبة تقوية لمعنى الإعراض والمقت الحاصلان بسبب عدم رضاهم حكم رسول الله بأن كِلَا الْفَرِيقَيْنِ بَرِيءٌ مِنْ دِينِ إِبْرَاهِيمَ، فأنكر الله عليهم ذلك والمعنى على الالتفات "﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ حكما بينهم، ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ انقاد وخضع ﴿مَنْ فِي السَّماواتِ﴾ من الملائكة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ من الإنس والجن ﴿طَوْعاً﴾ بالنظر والاستدلال والإنصاف من النفس ﴿وَكَرْهاً﴾ بالقوة حال الصحة كنتق الجبل على اليهود أو عند معاينة العذاب ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة "(٢)

(١) مفاتيح الغيب – التفسير الكبير لفخر الدين الرازي : ٨/ ٢٧٩ .

(٢) بيان المعاني [مرتب حسب ترتيب النزول]– عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني :٥ / ٣٦٢– الناشر: مطبعة الترقي – دمشق– الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٥ م ، وينظر : نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي : ١/ ٢٢٤ ، الناشر: جامعة أم القرى – كلية الدعوة وأصول الدين– المملكة العربية السعودية [٣ رسائل دكتوراة]. عام النشر: ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٥ م.

ومما هو من هذا الباب قوله تعالى : ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[١]

أي : قليلا ما تتعظون ، أي تذكرا قليلا أو زمانا قليلا تذكرون لا كثيرا حيث لا تتأثرون بذلك ولا تعملون بموجبه وتتركون الحق وتتبعون غيره. فقليلا نعت مصدر أو زمان محذوف أقيم مقامه ونصبه بالفعل بعده وقدم عليه للقصر، و«ما» مزيد لتأكيد القلة لأنها تفيدها في نحو أكلت أكلا ما فهي هاهنا قلة على قلة، والظاهر من القلة معناها، وجوز أن يراد بها العدم كما في قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾[٢]

وقوله:﴿ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ قَرَأَهُ حَمْزَةُ، وَالْكِسَائِيُّ، وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ، – بِتَخْفِيفِ الذَّالِ– عَلَى حَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ اخْتِصَارًا.[٣]، وَقَرَأَهُ ابْنُ عَامِرٍ: يَتَذَكَّرُونَ– بِتَحْتِيَّةٍ فِي أَوَّلِهِ ثُمَّ فَوْقِيَّةٍ–[٤]، وكذا هو في مصاحف أهل الشام مع تخفيف الذال[٥] فالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْمُشْرِكِينَ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ.

"قال أبو منصور: مَنْ قَرَأَ بالياء فللغيبة، وَمَنْ قَرَأَ بالتاء فللمخاطبة، وكل جائز[٦].

---

(١) سورة الأعراف : آية :١ – ٣ .

(٢) سورة البقرة : بعض آية :٨٨ – وينظر : روح المعاني للألوسي : ٤ / ٣١٩.

(٣) تذكرون أصله تتذكرون فأدغم تاء تفعل في الذال لأن التاء مهموسة والذال مجهورة، والمجهور أزيد صوتا من المهموس ؛ فحسن إدغام الأنقص في الأزيد ، وما موصولة بالفعل وهي معه بمنزلة المصدر فالمعنى: قليلا تذكركم ..

(٤) السبعة في القراءات : صـ ٢٧٨ ، حجة القراءات : ٢٨٠ .

(٥) النشر في القراءات العشر : ٢ / ٢٦٧ .

(٦) معاني القراءات :١/٤٠٠ .

وقراءة ابن عامر (يتذكرون) بياء وتاء فوجهها أنه خطاب للنبي ﷺ أي قليلا ما يتذكر هؤلاء الذين ذكروا بهذا الخطاب، وأما قراءة حمزة والكسائي وحفص خفيفة الذال شديدة الكاف فقد حذفوا التاء التي أدغمها الأولون وذلك حسن لاجتماع ثلاثة أحرف متقاربة والله أعلم" (١).

وإنما كان الإعراض عَنْهُمْ وَوَجَّهَ الْكَلَامَ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ السَّامِعِينَ: إِلَى النّبي ﷺ وَالْمُسْلِمين، كناية عن غضبه من صنيعهم، وطردهم من رحمته، في حال أمرهم بما فيه صلاحهم في قوله ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾، فكانت قراءة الغيبة ﴿ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ على صورة الالتفات من الخطاب للغيبة، وكأنه إنكار عليهم صنيعهم، وتسجيل سوء فعالهم، ووسمهم بالجهالة وعدم التعقل للأمور.

قال الزمخشري :" (اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ) من القرآن والسنة (وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ) من دون الله (أَوْلِياءَ) أي: ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ويضلوكم عن دين الله وما أنزل إليكم، وأمركم باتباعه ....، (قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ) حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره" (٢)، ومن كان هذا حالهم استحقوا الإعراض عنهم ، والمقت والطردهم من رحمة الله .

ويلاحظ في صورة الالتفات من الخطاب للغيبة في هذه الآية وما يماثلها نوعا من السخرية منهم، والتعريض بغباوتهم ، حيث إن القلة هنا ليس بمعناها المعهود ، وإنما هو نفي للتذكر كلية والقلة مستعمل في معنى النفي، "وإنما استعملت العرب

(١) ينظر : السابق نفسه .

(٢) تفسير الكشاف : ٢ / ٨٦ .

القلة عوضا عن النفي لضرب من الاحتراز والاقتصاد، فكأن المتكلم يخشى أن يتلقى عموم نفيه بالإنكار فيتنازل عنه إلى إثبات قليل وهو يريد النفي" [1]، وهذا نوع من التهكم والسخرية من هؤلاء الذين دعوا إلى الحق ، ووجهوا إلى الصواب في قوله ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ ومع ذلك لضلال عقلهم، وسفه أحلامهم، اختاروا الضلال، وساروا في طريق الغواية، واتبعوا خطوات الشيطان، من ثم استحقوا الإعراض عنهم، مقتا وطردا، سخرية وتهكما، وهذا مفهوم من السياق الحالي، وذاك أن أمر السخرية في القرآن الكريم ليس موقوفا على السياق اللغوي المقالي فحسب، وإنما هو في المقام الأول أمر عقلي يعتمد على الحس والذوق، وسياقات الأحوال ومقاماتها اللفظية والحالية، والغرض منها على ما هو مراد من الآية هو الحط من قدر هؤلاء، والانتقاص من شانهم، وسلب الثقة من أنفسهم، وإلحاق العذاب النفسي بهم دنيويا، مع تحققه لهم أخرويا، في الوقت نفسه الإقبال على النبي ﷺ والمسلمين الكرام في مخاطبتهم في قراءة الغيبة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ خدمة للمؤمنين، وتثبيتا لهم من خلال بث الشعور بالثقة والتفوق والاستعلاء فليس من يقبل الله عليه برحمته، كمن يعرض عنه طردا ومقتا، وهذا يمثل جانبا من جوانب الإعجاز في النظم القرآني حيث إنه يعد سلاحا قويا مؤثرا في نفوس المخاطبين. [2]

---

(١) التحرير والتنوير : ٥ / ٧٧ ، وينظر: منهج الإمام الطاهر بن عاشور في التفسير– : نبيل أحمد صقر صـ ٢٠٥– ط الدار المصرية القاهرة الأولى، ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م.

(٢) أسلوب السخرية في القرآن الكريم – د/ عبد الحليم حفني صـ ١٠١ –وما بعدها بتصرف، والألفاظ الدالة على التهكم والسخرية في القرآن الكريم " دراسة دلالية في ضوء علم اللغة الحديث – أسماء جمعة توفيق أبو طه – صـ٣٠٧ ، أطروحة ماجستير – مخطوط في مكتبة كلية الدراسات الإسلامية والعربية – بنات القاهرة – جامعة الأزهر ١٤٣٩هـ ، ٢٠١٩م .(بتصرف ظاهر)

ويجوز أن يكون ﴿قَلِيلًا﴾ مستعارا لمعنى النفي والعدم على وجه التلميح، كقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، فإن الإيمان لا يوصف بالقلة والكثرة، والتذكر مصدر الذكر – بضم الذال– وهو حضور الصورة في الذهن، وقليل مستعمل في العدم على طريقة التهكم بالمضيع للأمر النافع يقال له: إنك قليل الإتيان بالأمر النافع، تنبيها له على خطئه، وإنه إن كان في ذلك تفريط فلا ينبغي أن يتجاوز حد التقليل دون التضييع له كله.[2] . وفى هذا إيماء إلى النهى عن طاعة الخلق في أمر الدين غير ما أنزل الله من وحيه كما فعل أهل الكتاب في طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلوا لهم وزادوا على الوحي من العبادات، وما حرموا عليهم من المباحات كما جاء في قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[3] ، فكل من أطاع أحدا في حكم شرعي لم ينزله الله فقد اتخذه ربا ، وإتباع الرسول ﷺ فيما صح عنه من بيان الدين– داخل فى عموم ما أنزل إلينا على رسوله، لأنه تعالى أمرنا بإتباعه وطاعته وأخبرنا أنه مبين لما نزل إليه[4] كما في قوله تعالى :﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5]، وقد صح في الحديث أنه ﷺ قال: « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ» [6].

---

(١) سورة البقرة : بعض آية : ٨٨ .

(٢) التحرير والتنوير : ٨ ب / ١٧، ١٨ .

(٣) سورة التوبة : بعض آية : ٣١ .

(٤) تفسير المراغي : ٨ : ١٠٠ .

(٥) سورة النحل : آية : ٤٤ .

(٦) صحيح مسلم : المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ: مسلم ابن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري : كتاب : الفضائل – بَابُ: وُجُوبِ امْتِثَالِ مَا

ومما يجري هذا المجرى من كون القلة مبنية على نفي الفعل ذاته قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[1]

فالفعل منفي ذاتا ، وليس موصوفا عرضا، قال الألوسي: قوله ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكرا قليلا، أو زمانا قليلا تتذكرون- فقليلا- نصب على المصدرية، أو على الظرفية لأنه صفة مصدر أو ظرف مقدر، وما- مزيدة على التقديرين لتأكيد معنى القلة التي أريد بها العدم، أو ما يجري مجراه في الحقارة وعدم الجدوى، ومفعول تَذَكَّرُونَ محذوف للفاصلة، فقيل: التقدير تذكرون نعمه، وقيل: تذكرون مضمون ما ذكر من الكلام، وقيل: تذكرون ما مر لكم من البلاء والسرور، ولعل الأولى نعمه المذكورة، وللإيذان بأن المتذكر في غاية الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه كان التذييل بنفي التذكر" . [2]

فقد قرأ الجمهور ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ بتاء الخطاب. وقرأه روح عن أبي عمرو وهشام عن ابن عامر بياء الغيبة[3] ، وهذا على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، والقلة – هنا – تحمل معنى النفي كلية،

قَالَهُ شَرْعًا، دُونَ مَا ذَكَرَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَعَايِشِ الدُّنْيَا، عَلَى سَبِيلِ الرَّأْيِ ، حديث رقم (٢٣٦٢) عن رَافِعِ بْنُ خَدِيجٍ- المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي- الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(١) سورة : النمل : آية : ٦٢ .

(٢) ينظر : تفسير : روح المعاني : ١٠ / ٢١٨ .

(٣) النشر في القراءات العشر :٢ / ٢٣٨، ٢٣٩ .

ومثله – أيضا – قوله تعالى :﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[1]، فقد قرأ الجمهور﴿ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴾، و﴿ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾، كليهما بالمثناة الفوقية، وقرأهما ابن كثير وهشام عن ابن عامر ، واختلف الرواة عن ابن ذكوان عن ابن عامر ويعقوب بالياء التحتية[2] ، فالكلام على طريق أسلوب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، كأنه – سبحانه – يذكر لغيرهم حالهم ليتعجب منها ويستدعى منه الإنكار والتقبيح لها، إشارة منه إلى سبيل المبالغة عدم إيمانهم ، ونفي تذكرهم ، لاسيما مع وجود الداعي للإيمان ، والدليل على التذكر والاعتبار ، وفي قراءة الجمهور﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾، نكتة توجيه الخطاب إلى المشركين مكافحة لهم، والإنكار عليهم سوء صنيعهم ، وفي هذا من الردع والزجر ما فيه، وفي قراءة الغيبة بالياء فيه من الإعراض عنهم، ومقتهم وطردهم ، والتشهير بهم ، وهو – أيضا – مبالغة في الردع والزجر، وكلا المعنيين يمكن حمل القراءتين عليهما .

ومما هو من الالتفات من الخطاب للغيبة لقصد الإعراض تهديدا ووعيدا قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ [3] ، فقد اختلفُوا فى قَوْلـه ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا ﴾

(١) سورة النحل : آية : ٤٤ .

(٢) المبسوط في القراءات العشر – أحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوريّ، أبو بكر : صـ ٤٤٥ ، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي – الناشر: مجمع اللغة العربية – دمشق– عام النشر: ١٩٨١ م.

(٣) سورة النحل : آية : ١٨ – ٢٠

فَقَرَأَ ابْن كثير وَأَبُو عَمْرو وَنَافِع ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا ﴾ بِالتَّاءِ كُلهنَّ، وَقَرَأَ عَاصِم ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ بِالتَّاءِ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ بِالْيَاءِ، وعَن حَفْص عَن عَاصِم أَنه قَرَأَ ثلاثهن بِالْيَاءِ، وروى الكسائى عَن أَبى بكر عَن عَاصِم ذَلِك كُله بِالتَّاءِ فى الثَّلَاثَة. (١) ، قال أبو منصور الأزهري: مَنْ قَرَأَ ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ ثم قرأ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ بِالْيَاءِ، فالتاء للمخاطبة: أي إن اللَّه يعلم ما تسرون أنتم وما تعلنونه، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أراد بالذين: معبوداتهم من الأصنام، و﴿ يَدْعُونَ ﴾ بِالْيَاءِ فعل لعابديها، ولو قال: والتي يَدْعُونَ كان وجه الكلام، وإنما قال ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ ؛ لأنه وصفها بصفة المميزين. ومن قرأها كلها بالياء فهو خبر عن الغيب، كأنه قال: الله يَعلمُ سِرهم وعَلانِيتهم.

وقوله جلَّ وعزَّ:﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا ﴾ يعنى: الآلهة التي عبدوها، إنها لا تخلق شيئا؛ لأنها مخلوقة، فعبادتها محَال، ولا يُعبد إله لا يخلُق ولا يرزُق من يعبده(٢)، وعلى ذلك ففي قراءة مَنْ قَرَأَ ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ بالتاء التي للمخاطبة ثم قرأ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ بِالْيَاءِ التي للغائب فهو من الانتقال السياقي الحاصل بين طريقي الخطاب والغيبة ، لنكتة بلاغية ، وإن كانت القراءتان (التاء والياء) الحاصلان في الآية تلقيان ظلالا كثيفة من المعاني التي يحتملها السياق

(١) ينظر : السبعة في القراءات : صـ ٣٧١ .

(٢) ينظر : معاني القراءات للأزهري : ٢ / ٧٧ .

والمقام ، فكان مما انصرفت إليه قراءة التاء للإخبار عن معبوداتهم من الأصنام والملائكة . (١)

قال أبوعلي الفارسي :" فإن قلت: إنّ فيه ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وهذا لا يكون خطابا للنبي ﷺ، ولا للمسلمين، فإنّه يكون على إرادة: قل، كأنّه: قل لهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فلا يمتنع الخطاب إذا كان على هذا الوجه، ولهذا قرأ عاصم:والذين يدعون بالياء، لما كان ذلك عنده إخبارا عن المشركين، ولم يجز أن يكون في الظاهر خطابا للمسلمين، فأما ما روي عن عاصم من أنه قرأ كلّه بالياء، فهذا على توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ، كأنه: قل لهم: والله يعلم ما يسرّون وما يعلنون، والذين يدعون. (٢)

واللمحة البلاغية للالتفات –هنا– بتوجيه الكلام من طريق مخاطبتهم إلى طريق الغيبة بمخاطبة النبي ﷺ أو مخاطبة المسلمين هي قصد التسجيل عليهم سوء الفعل، وقبح الصنيع، مما أوجب الإعراض عنهم حالا ومقالا ، كأنه يسجل على هؤلاء الذين يدعون من دون الله ما لا يضر ولا ينفع ما اقترفوه، ويشهد عليهم غيرهم، لاسيما وإن كان الملتفت إليه عن طريق الغيبة هو النبي ﷺ أو المسلمين جميعا ، ممن يشهدون على الأمم السابقة ، وما فعلوه مع أنبيائهم قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٣)، والمعنى ما ينبغي عليكم بعد أن علمتم حقيقة معبوداتكم الباطلة، وعقيدتكم الزائفة، ووقفتم على كثرة العطايا، وتعداد النعم التي لا تعد

(١) ينظر : التوجيه اللغوي للقراءات السبع : ٢٢٩ .

(٢) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ٥ / ٥٩ .

(٣) سورة البقرة : بعض آية : ١٤٣ .

ولا تحصى، لا ينبغي أن يكون شأنكم أن تدعوا آلهة من دون الله ، فتلك حالة لا يتلبس بها إلا حاقد، أو مكابر، أو فاقد عقل، فلا قيمة له، ولا يقام له وزن في الدنيا بمقته وطرده من رحمة الله لفظا بالالتفات عنه إلى غيره بطريق الغيبة، ومعنى بعدم النظر إليه ، وعدم تزكيتهم في الدنيا ، ولهم عذاب عظيم في الآخرة فصرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة عن طريق الالتفات تنكيلا بهم، واستهزاء وسخرية من قبح فعلهم، وجرم صنيعهم، وهو من قوله تعالى :﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ [1]، الأصل في ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ ﴾ وتقطعتم، عطفا على الأول، إلا أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات ، كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين، ويقبح عندهم ما فعلوه، ويقول: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا، وذلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم، ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون، فهو مجازيهم على ما فعلوا [2]، كما أن في هذا التحول الكلامي نوعا من التهديد والوعيد لهؤلاء، والتأكيد على ذلك مقالا ومقاما : "فَالْمُخَاطَبُ هُنَا هُمُ الْمُخَاطَبُونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [3] وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِالتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ بِأَنَّ اللَّهَ مُحَاسِبُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَفِيهِ إِعْلَامٌ بِأَنَّ أَصْنَامَهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ تَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ فَإِنَّهُ يُفِيدُ الْقَصْرَ لِرَدِّ دَعْوَى الشَّرِكَةِ، وَقَرَأَ حَفْصٌ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ

(١) سورة الأنبياء : آية : ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) المثل السائر : ٢ / ١٠ ، ١١ .

(٣) سورة : النحل : آية :. ١٧ ، ينظر : التحرير والتنوير : ١٤ / ١٢٥

بِالتَّحْتِيَّةِ فِيهِمَا، وَهُوَ الْتِفَاتٌ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ. وَعَلَى قِرَاءَتِهِ تَكُونُ الْجُمْلَةُ أَظْهَرُ فِي التَّهْدِيدِ مِنْهَا فِي قصد التَّعْلِيم." (١)

ومما هو منخرط في هذا السلك قوله تعالى :﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ . (٢)

الأصل : أفبنعمة الله تجحدون – بالمثناة الفوقية على مقتضى الظاهر، كما قرأها أبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب،(٣)– تناسبا مع السياق المقالي في قوله تعالى على طريقة الخطاب : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾، وقوله تعالى مخاطبا :﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾ ، ولكن لما قابلوا إحسان الله إليهم بالإساءة، وحولوا ما كان ينبغي عليهم من شكر النعم إلى نكران وجحود، صرف الكلام ههنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة، وهي إظهار ما هم عليه لغيرهم ، والتسجيل عليهم سوء فعالهم ، وأنه ما ينبغي عليهم أن يأتوا بمثل هذا

(١) التحرير والتنوير : ١٤ / ١٢٥ .

(٢) النحل : آية : ٧٠ – ٧٢

(٣) قرأ أبو بكر " أفبنعمة الله تجحدون " بالتاء أي قل لهم يا محمد أفبنعمة الله أي بهذه الأشياء التي ذكرها تجحدون وحجته قوله أول الآية {والله فضل بعضكم على بعض} ، وقرأ الباقون {يجحدون} بالياء الله وبخهم على جحودهم ويقوي الياء قوله تعالى بعدها {وبنعمة الله هم يكفرون} [حجة القراءات : ٣٩٢ ، السبعة في القراءات : ٣٧٤ ، معاني القراءات: ٢/ ٨٢].

الصنيع إنكارًا على المشركين الذين أورد الله تعالى هذه الحجة عليهم" لأنه لما كان المعطي لكل الخيرات هو الله تعالى فمن أثبت لله شريكا فقد أضاف إليه بعض تلك الخيرات فكان جاحدا لكونها من عند الله تعالى، وأيضا فإن أهل الطبائع وأهل النجوم يضيفون أكثر هذه النعم إلى الطبائع وإلى النجوم، وذلك يوجب كونهم جاحدين لكونها من الله تعالى".[1]، وقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ ﴾ مثل ضرب لبيان مقدار وقاحتهم، وسوء فعالهم، وأنهم بفعالهم هذه "إذا أضافوا بعض تلك النعم الفائضة عليهم من مولاهم إلى شركائهم، وجعلوها أندادا، وهى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا " [2]، وقوله :﴿ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾الفاء للعطف على مقدر وهى داخلة في المعنى على الفعل والجحود الإنكار والباء لتضمينه معنى الكفر. والمعنى : أبعد علمهم بأن الرزاق هو الله تعالى يشركون به فيجحدون نعمته فان الإشراك يقتضى أن يضيفوا نعم الله الفائضة عليهم إلى شركائهم وينكروا كونها من عند الله تعالى فالله تعالى يدعو عباده بهذه الآية إلى التوحيد ونفى الشرك حتى، يتخلصوا من الشرك والظلمات ويتشرفوا بالتوحيد الخالص والأنوار العاليات فعلى العبد الطاعة والسعي إلى تحصيل الرضوان والعرفان وإنما الرزق على المولى الكريم المنان" [3].

كما أن لمحة بلاغية أخرى للالتفات من الخطاب للغيبة – هنا –وهي إخبار غيرهم بحالهم لأجل أخذ العبرة منها ، خشية الوقوع في مثل ما وقعوا فيه، تعلما وتأدبا، واستدعاء لإنكارهم وتعجبهم من قبح صنيعهم ، ولو سار الكلام على طريقة

(١) مفاتيح الغيب – التفسير الكبير : ٢٠ / ٢٤٤ .

(٢) تفسير المراغي : ١٤ / ١١١ .

(٣) روح البيان : ٥ / ٥٧ .

الخطاب لذهبت تلك الفوائد البلاغية العالية، ناهيك عما في الانتقال من الخطاب للغيبة من دلالة على أن من وصفوا بهذا الوصف ليس جميع من وقع عليهم الخطاب في الآيات السابقة، وإنما منهم من شكر وحمد ، وقابل النعم بالطاعة وطلب المغفرة، ومن ثم كان التوجه إليهم بالكلام نوعا من إكرامهم ورفع قدرهم، وإعلاء منزلتهم، مع ما يقابل غيرهم من مقت وطرد وبعد عن رحمة الله تعالى، ولو جاء الكلام على ظاهره السياقي ما وقعت تلك الفوائد الجليلة، والمعاني البلاغية البديعة في هذا النظم القرآني المعجز، وهذا ما لا يوجد في التعبير ما إذا جاء الكلام على وتيرة واحدة ، وهو من قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1]، فإنه إنما صرف الكلام ههنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة، وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم لِيُعَجِبَهُمْ منها كالمخبر لهم، ويستدعي منهم الإنكار عليهم، ولو ساق الخطاب معهم إلى آخر الآية لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة ، وليس ذلك بخاف عن نقدة الكلام [2].

وفائدة هذا الالتفات – أيضا – بيانُ أنّ الذين تكون منهم هذه الظاهرة التي تحدّث عنها النّصّ ليسوا جميع المخاطبين، بل هم فريق منهم، فمن الحكمة الحديث عنهم بأسلوب الحديث عن الغائب، مع ما في الحديث عن الغائب من الإعراض

(١) سورة : يونس : آية : ٢٢، ٢٣ .

(٢) المثل السائر : ٢ / ١٠ .

المشعر بالتأنيب على ما يكون منهم، وقد جاء في النصّ بعد ذلك تأنيبُهُمْ صراحةً فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ ولَوْ تتابع الكلامُ وفْقَ أُسْلُوب الْخِطاب دون ما حصل في النصّ من الالتفات لكان التأنيب مُوَجّهاً لكلّ الناس، مع أنّ فيهم صالحين لا تظهر منهم هذه الظاهرة القبيحة من الظواهر المنافية للسلوك الدّيني المطلوب من العباد[1].

وكذا في آية النحل التي وقع فيها الالتفات بسبب التغاير القرائي بين (ياء) الغيبة، و(تاء) الخطاب، فإن النص جاء مؤنبا لهم، مستنكرا فعالهم بقوله: ﴿ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾ ، ولو جاء الكلام على الخطاب تبعا مع السياق المقالي، ومجيء الكلام وفق مقتضى الظاهر لضاع كثير من نظم الفوائد، وحسن الفرائد، زيادة على ما بين القراءتين من تلاؤم وتناسب مع المعاني المتدفقة بين أغوار ألفاظ الآية، ونظم مفرداتها، يقول الطاهر ابن عاشور: ﴿ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾على قراءة الجمهور بالتحتية التفات من الخطاب إلى الغيبة. ونكتته أنهم لما كان المقصود من الاستدلال المشركين فكانوا موضع التوبيخ ناسب أن يعرض عن خطابهم وينالهم المقصود من التوبيخ بالتعريض كقول الشاعر: [2]

(١) البلاغة العربية – عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة: ١ / ٤٨٩ الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت – الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

(٢) الأبيات منسوبة لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت في ، عيون الأخبار :ابن قتيبة الدينوري:١٩٢/٣ ط: دار الكتب العلمية –بيروت : ١٤١٨ هـ والحماسة المغربية– مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب : أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي:١٣٤٩/٢ تحقيق : محمد رضوان الداية ط: دار الفكر المعاصر – بيروت : الأولى، ١٩٩١م ، و الحماسة البصرية: لعلي بن أبي الفرج بن الحسن، أبو الحسن البصري : ٢/ ٢٦٦تحقيق :

ذُمِمتَ وَلَم تُحمَد وَأَدرَكتُ حاجَتِي تَولَّى سِوَاكُم شُكرُهَا واصطِنَاعَهَا
أَبَى لَكَ فِعْلُ الخَيْرِ رَأيٌ مُقَصِّرٌ وَنَفْس أضَاقَ اللَّهُ بِالخَيْرِ بَاعُهَا
إِذَا هِيَ حَثَّتْهُ عَلَى الخَيْرِ مَرَّةً عَصَاهَا وَإِنْ هَمَّتْ بِسُوءٍ أَطَاعَهَا

ثم صرح بما وقع التعريض به بقوله: ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾، وفي قراءة عَلَى مُقْتَضَى الظَّاهِرِ وَيَكُونُ الِاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلًا فِي التَّحْذِيرِ، لنكتة الإعراض عنهم لأنهم استأهلوا الإعراض بعد تذكرهم".[1]

وثمة فائدة بلاغية أخرى ذكرها شيخنا الدكتور محمد أبو موسى في مثل هذا الانتقال من الخطاب إلى الغيبة وهو قصد التشهير بهم، وبيان قبح صنيعهم على رؤوس الأشهاد[2] وكأنه يروي قصتهم لغيرهم؛ لأن هذه الطبائع العجيبة جديرة بأن تذاع وتروى"، وقال معلقا على آية سورة يونس:" ثم فيه لطيفة أخرى هي أنهم كانوا في مقام الخطاب كائنين في الفلك: ﴿كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ ، فهم في مقام الشهود والوجود، ثم لما جرت بهم الريح ذهبوا بعيدا عن مقام الخطاب، فلاءم هذه الحال طريق الغيبة"[3]، وَتَصْلُحُ جُمْلَةُ ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾، أَنْ تَكُونَ مُفَرَّعَةً عَلَى

مختار الدين أحمد ،ط : عالم الكتب – بيروت. [قِيْلَ سَأَلَ سَعِيْدُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن حَسَّان عَنْبَسَةَ بن سَعِيْد بن العَاصِ حَاجَةً فَلَم يَقُم فِيْها فَتَرَكَهُ وَسَأَلَ عُمَرَ بن عبدُ العَزِيْزِ فَقَامَ لَهُ بِهَا فَقَالَ الأبيات[ينظر: الدر الفريد وبيت القصيد لمحمد ابن أيدمر المستعصمي : ٦ / ٢٥٦ المحقق: د/ كامل سلمان الجبوري ط : دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان-: الأولى، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.]

(١) التحرير والتنوير : ٢٠ / ١٦ .

(٢) خصائص التراكيب " دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني " لشيخنا الدكتور – محمد محمد أبو موسى : صـ ٢٩١ ، طبعة : مكتبة وهبة – العاشرة – ١٤٣٨هـ ، ٢٠١٧م.

(٣) ينظر: ينظر: خصائص التراكيب : ٢٩١ .

جُمْلَةِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ، فَيَكُونُ التَّوْبِيخُ مُتَوَجِّهًا إِلَى فَرِيقٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَهُمُ الَّذِينَ فُضِّلُوا بِالرِّزْقِ وَهُمْ أُولُو السِّعَةِ مِنْهُمْ وَسَادَتُهُمْ وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ كُفْرًا بِالدِّينِ وَتَأَلُّبًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، أَيْ أَيَجْحَدُ الَّذِينَ فُضِّلُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ إِذْ أَفَاضَ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ فَيَكُونُوا أَشَدَّ إِشْرَاكًا بِهِ[1]، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ ، ومما هو بحمل نفس الصورة من الجحود والإنكار، وكان سبيل الالتفات فيه التغاير القرائي بين ضميري الخطاب والغيبة، معددا دلائل قدرته، وعظيم فعاله بالجمع بين الإحياء والإماتة قوله تعالى:﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[2] فقد قرأ الجمهور ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ بياء الغائب والضمير عائد إلى الذين كفروا في قوله [وقال الذين كفروا للذين آمنوا]، أو إلى معلوم من سياق الكلام ، وعلى وجه أن يكون قوله [وإن تكذبوا] إلخ خارجا عن مقالة إبراهيم يكون ضمير الغائب في أولم يروا التفاتا ، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لنكتة إبعادهم عن شرف الحضور بعد الإخبار عنهم بأنهم مكذبون، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف أولم تروا بالفوقية "[3] ، ومما يجري مجراه قوله تعالى :﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[4] ومنه قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ

(١) التحرير والتنوير : ١٤ / ٢١٦ .

(٢) سورة العنكبوت : آية : ١٨ ، ١٩

(٣) السبعة في القراءات : صـ ٣٧٣ .

(٤) سورة : الروم : آية : ٤٠، فقد قرأ الجمهور تشركون بفوقية على الخطاب تبعا للخطاب في چآتَيْتُمْ چ وقرأه حمزة بتحتية على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾[1]، فقد قَرَأَ الْجُمْهُورُ: تُكَذِّبُونَ بِتَاءِ الْخِطَابِ ، وَقَرَأَهُ أَبُو جَعْفَرٍ بِيَاءِ الْغَيْبَةِ[2] عَلَى الِالْتِفَاتِ، وَفِي صِيغَةِ الْمُضَارِعِ مِنْ قَوْلِهِ: تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ إِفَادَةُ أَنَّ تَكْذِيبَهُمْ بِالْجَزَاءِ مُتَجَدِّدٌ لَا يُقْلِعُونَ عَنْهُ، وَهُوَ سَبَبُ اسْتِمْرَارِ كُفْرِهِمْ، وَفِي الْمُضَارِعِ أَيْضًا اسْتِحْضَارُ حَالَةِ هَذَا التَّكْذِيبِ اسْتِحْضَارًا يَقْتَضِي التَّعْجِيبَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لِأَنَّ مَعَهُمْ مِنَ الدَّلَائِلِ مَا لَحِقَهُ أَنْ يُقْلِعَ تَكْذِيبُهُمْ بِالْجَزَاءِ. [3] .

ونستخلص من هذا العرض لذلك اللون من الالتفات لاسيما في معرض التغاير القرائي في القرآن الكريم فوائد بلاغية يكاد يشمل ذلك الحكم كل صور الالتفات من الخطاب للغيبة والعكس وهو أن الانتقال من لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور يدل على مزيد قرب وإكرام، وتشريف للملتفت إليه، وأما الانتقال من الخطاب (الحضور) إلى الغيبة فعادة ما يدل على المقت والبغض والإهانة للملتفت عنه، وتلك من فوائد الالتفات هنا .

وهكذا تتناغم وسائل التعبير المختلفة، وتتجاوب دلالاتها داخل النسق القرآني لتصل به في النهاية إلى أسمى غاياته في الإبداع والإبلاغ والإمتاع والتأثير، وكان حريا ببحثنا البلاغي إن يمد نظره إلى تلك الطريقة في التحليل، لينفي عنه تفث الطريقة الجزئية التي علقت ببعض مصنفات المتأخرين.[4].

(١) سورة الانفطار: آيات: ٦ – ١٠

(٢) ينظر: إتحاف فضلاء البشر : ٥٧٥ ، النشر في القراءات العشر : ٢/ ٣٩٩ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٣٠ / ١٧٩

(٤) ينظر : التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية : ٣٤٧ .

المبحث الرابع

الالتفات من الغيبة للخطاب

وحده : التعبير عن المعنى بطريق الغيبة أولا، سواء عن طريق التعبير بالضمير أو بالاسم الظاهر القائم مقام الغيبة؛ ثم العدول عنه إلى طريق الغيبة، وتلك الصورة من الالتفات لها مواقع كثيرة ومنتشرة في باب التغاير القرائي، وكان الغرض منها مختلفا حسب الحال ومقتضى المقام، " فالعدول من الغيبة إلى الحطاب ينطوي على معنى الإقبال على المخاطبين، أو مواجهتهم بالمنقول إليهم، وذلك بحسب المقام وعدا أم وعيدا، كما يدل على مجرد تفاوت بين مقام المخبر عنهم بالغيبة ، ومقام الذين يقبل عليهم بالخطاب ، ففي مقام الذم ينطوي العدول عن الغيبة إلى الخطاب على مواجهة المتلقين بالتوبيخ والإنكار، وفي مقام الوعد ينطوي على معنى الإقبال على المخاطبين بالبشرى"(١).

فتارة يكون الغرض منه الإنكار والتوبيخ، والتسجيل عليهم سوء فعالهم، وتارة يكون الغرض منه التشريف والتعظيم، وإليك بيان ذلك بمثل من التغاير القرائي، وأثره في رسم صورة الالتفات والسر البلاغي في التعبير به .

فمن الأول قوله تعالى :﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن

(١) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية : ٣٤٢ .

لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَّيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة : ٤٧ – ٥٠).

" قال ابن عباس: إن جماعة من اليهود، قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه. فأتوه فقالوا: يا محمد، قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولن يخالفونا، وإن بيننا وبين قوم خصومة ونحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك. فأبى ذلك رسول الله – ﷺ – ، فأنزل الله تعالى فيهم: واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك"(١) .

وقد قرأَ قَرَأَ الْجُمْهُورُ ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ ﴾ بِيَاءِ الْغَائِبِ (٢) وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ لِـ﴿ مَنْ ﴾ من قَوْلِهِ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾، جريا على النسق القرآني في الحديث بطريق الغيبة أهل الكتاب، وهذا يحمل معنى الإخبار عنهم لغيرهم، افتضاحا لأمرهم ، واحترازا من الوقوع في مثل جرمهم، والإعراض عنهم إشارة لمقتهم وطردهم من حضرة ربهم، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ ﴿ أَفَحُكْمَ

(١) أسباب نزول القرآن : صـ ٢٠٠–

(٢) السبعة في القراءات : صـ ٢٤٤ ، حجة القراءات : صـ ٢٢٨ .

﴿ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ تَبْغُونَ ﴾ بِتَاءِ الْخِطَابِ[1]، عَلَى أَنَّهُ خِطَابٌ لِلْيَهُودِ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ، وفي مخاطبتهم مواجهة نوع من التسجيل عليهم سوء صنيعهم، والمبالغة في الزجر، إشارة إلى شدة الجرم، وعظم الذنب فهو " إنكار وتعجيب من حالهم وتوبيخ لهم، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي أيتولون عن قبول حكمك بما أنزل الله تعالى إليك فيبغون حكم الجاهلية، وقيل: محل الهمزة بعد الفاء، وقدمت أن لها الصدارة، وتقديم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتعجب لأن التولي عن حكم رسول الله ﷺ وطلب حكم آخر منكر عجيب، وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب، والمراد بالجاهلية الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى الموجبة للميل والمداهنة في الأحكام، أو الأمة الجاهلية، وحكمهم: ما كانوا عليه من التفاضل فيما بين القتلى"[2].

وكما وقع هذا الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى:﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ تَبْغُونَ ﴾، وقع أيضا في قوله:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ إنكار لأن يكون أحدٌ حكمُه أحسنُ من حكمه تعالى أو مساو له وإنْ كانَ ظاهرُ السَّبكِ غيرَ متعرِّضٍ لنفي المساواة وإنكارِها[3] ، مثال ذلك قوله تعالى:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ

(١) ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: أبو الفتح عثمان بن جني:١/ ٢١٠ ط: وزارة الأوقاف–المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر : أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، شهاب الدين الشهير بالبناء : صـ ٢٥٤ تحقيق : أنس مهرة ط : دار الكتب العلمية – لبنان : الثالثة، ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ.

(٢) تفسير روح المعاني – الألوسي : ٣ / ٣٢٣ .

(٣) سورة النساء : آية :١٢٥ .

وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[1]، أي أخلص نفسه له تعالى لا يعرِف له رباً سواه وقيل بذل وجهَه له في السجود وقيل أخلص عمله له عز وجل وقيل فوّض أمرَه إليه تعالى وهذا إنكارٌ واستبعادٌ لأن يكون أحدٌ أحسنَ ديناً ممن فعل ذلك أو مساوياً له وإن لم يكن سبكُ التركيب متعرضاً لإنكار المساواة ونفيها يُرشِدُك إليه العُرفُ المطّردُ والاستعمالُ الفاشي فإنه إذا قيل مَنْ أكرم من فلان أولا أفضلَ من فلان فالمرادُ به حتماً أنه أكرمُ من كل كريم وأفضل من كل فاضلٍ وعليه مساقُ قوله تعالى وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى ونظائرِه ودِيناً نُصب على التمييز من أحسنُ منقولٌ من المبتدأ والتقديرُ ومن دينُه أحسنُ من دين مَنْ أسلم الخ فالتفضيلُ في الحقيقة جارٍ بين الدينين لا بين صاحبيهما ففيه تنبيهٌ على أن ذلك أقصى ما تنتهي إليه القوةُ البشرية[2].

واشتمال الآية على استفهامين جاءا لقصد الإنكار والتعجب والتوبيخ الموجب للذم والمقت ، وتوبيخ المواجهة أقوى أثرًا، وأشد وقعًا على النفس من توبيخ الواسطة، أو توبيخ الإخبار، زيادة عما في قراءة الغيبة من معنى المقت والطرد والإعراض، فاتساع المعنى في القراءتين مرادان معا ؛ لتحقق معاني الذم والمبالغة فيه فيمن لم يرض بحكم الله تعالى ، ومثل هذا يتناسب وتذييل الآية الأولى بقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾، وفي قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ لون بلاغي يسمى بالإيغال: وهو أن يستوفي معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه... ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحا وشرحا

(١) تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم –: ٣ / ٤٧ .

(٢) السابق: ٢ / ٢٣٦.

وتوكيدا حسنا[1]، وهو في هذه الآية إيغال تخيير، فإن المعنى قد تم بقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا ﴾ ، ولما احتاج الكلام إلى فاصلة تناسب ما قبلها وما بعدها، أتت لتؤسس مفهومًا زائدًا، لولاها لم يحصل، وذلك أنه لا يعلم أن حكم الله أحسن من كل حكم إلا من أيقن أنه واحد حكيم عادل، ليبقى توحيده الشريك في الحكم الذي انفرد به، ولم يكن له معارض فيه ولا مناقض له، ويحصل من حكمته وضع الشيء في موضعه فيؤمن منه وضع الحق في غير موضعه، وينفي العدل عنه الجور في الحكم، ثم عدل عن قوله:«يعلمون» إلى قوله:﴿يُوقِنُونَ ﴾ ليكون علمهم بربهم علم قطع ويقين.[2]

<u>ومما هو منخرط في هذه الصورة من الالتفات الواقع بسبب التغاير القرائي</u>

<u>قوله تعالى</u> :﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ <u>أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ</u> ﴾[3]

---

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري : صـ ٤٢٢ حققه وضبط نصه دكتور/ مفيد قميحة طبعة: دار الكتب العلمية – بيروت، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم – إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي : صـ ٨٨– حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي– الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(٢) الجدول في إعراب القرآن الكريم– محمود بن عبد الرحيم صافي : ٦/ ٣٣٧، ط: دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت الرابعة، ١٤١٨ هـ، وإعراب القرآن وبيانه – محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش : ٢ / ٤٩٩– الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية : الرابعة ، ١٤١٥ هـ

(٣) سورة : النحل: ٤٥ – ٤٨

والمعنى: أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن جانبي كل واحد منها. أى: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً، صاغرة منقادة لأفعال الله فيها، لا تمتنع. (١).

وقد قَرَأَ الْجُمْهُورُ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ بِالياء التَحْتِيَّةِ، ردًا على ما قبله من لفظ الغيب وهو قوله:﴿ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ وإلى قوله:﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ وإلى قوله:﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾(٢)، وَقَرَأَهُ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا ﴾ بِالْمُثَنَّاةِ الْفَوْقِيَّةِ(٣).وخص هذان الاسمان بهذين الجانبين﴿ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾؛ لأن أقوى جانبي الإنسان يمينه، ومنه تظهر الحركة الفلكية اليومية آخذة من المشرق إلى المغرب، لا جرم كان المشرق يمين الفلك والمغرب شماله (٤).

والخطاب المباشر فيَ قَرَاءة ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا ﴾ بِالْمُثَنَّاةِ الْفَوْقِيَّةِ، جريا على طريق الخطاب ملتفتا عن طريق الغيبة في قوله :﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ تعدادا لمظاهر قدرته ، وشدة تصرفه ، وقوة بطشه ، معرضا عنهم لسوء عقولهم ، وقبح صنيعهم ، ثم التفت إليهم جذبا وطردا إلى مخاطبة الحاضر في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ

(١) ينظر : تفسير الكشاف : ٢ / ٦٠٩ بتصرف

(٢) الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد– المنتجب الهمذاني : ١٢١/٤ ت : محمد نظام الدين الفتيح– ط: دار الزمان ، المدينة المنورة الأولى، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م

(٣) ينظر : كتاب السبعة في القراءات: ٣٧٣

(٤) ينظر : البحر المحيط في التفسير : ٦ / ٥٣٧ .

﴿ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴾ على وجه الخطاب للجميع، توبيخا وتقريعا لهم ، وزيادة في الترهيب والتخويف والتهديد؛ وذلك لأنه " لمَّا خوَّف المشركين بأنواع العذاب المتقدمةِ، أردفه بما يدلُّ على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي، والسفلي؛ ليظهر لهم أنَّ مع كمال هذه القدرة القاهرة والقوة الغير متناهية، كيف يعجز عن إيصال العذاب إليهم؟ وهذه الرؤية لما كانت بصرية وصلت بـ (إلى)؛ لأن المراد بها الاعتبارُ، والاعتبار لا يكون بنفس الرؤية، حتى يكون مع النظر إلى الشيء الكامل في أحواله[1]، ولا شك أن مثل هذه الصفات تقوى ويشتد أثرها بخطاب المواجهة دون الإخبار بواسطة غير المتكلم. وثمة لطيفة أخرى في هذا الانتقال القرائي بين الغيبة والخطاب، وهو أن المعنى في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾ أي أو لم يروا ويسمعوا عن قدرة الله الظاهرة الكائنة في الأشياء كلها، والمعنى: ينظرون بعيون الأبصار متفكرين بالبصائر"[2].

والغرض من الاستفهام في قراءة الغيبة هو الإنكار والتعجب من قلة تفكرهم في الدلائل والبراهين على وجود الله، وقدرته الظاهرة، ويتحول الغرض من الاستفهام في قراءة الخطاب (بالتاء) إلى معنى التقرير للحكم، والتأكيد عليه، ولاشك أن طلب إقرار بالشيء يكون في صيغة الحضور والخطاب المباشر أقوى وأشد من تقرير الغائب ، تسجيلا عليه سوء تفكيره، وقلة فهمه، وبهذا تكون القراءتان مشكلتين معاني جديدة، وآفاقا واسعة، لم تكن توجد إلا بتغاير القراءات لفعل واحد ، وكل

(١) ينظر : اللباب في علوم الكتاب : ١٢ / ٦٦ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – إبراهيم بن عمر بن حسن بن أبي بكر البقاعي : ١١ / ١٧٢ –ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

المعاني مراد حملها على ألفاظ النظم القرآني، ومثل هذا يثبت أن التغاير القرائي صورة من صور الإعجاز، وآية البيان المعجز .

ومعلوم أن الألف تدخل على واو العطف في الاستخبار والإنكار والتقريع على تقدير أن تكون الجملة التي فيها الواو معطوفة على الكلام مثلها يقتضيها وذلك كقولك لقائل: هل رأيت زيدا ثمة؟ أو زيد؟ ممن يكون ثمة فصورته بصورة من ثبت ذلك عنده أو قاله، فاستفهمه وعطفت على ما توهمت أنه في علمه أو وهمه. فكل موضع فيه بعد ألف الإنكار واو ففيه تبكيت على ما يسهل الطريق إلى ما بعد الواو، فالاعتبار به لكثرة أمثاله كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [1] كأن قائلا قال: كذبوا الرسول وغفلوا عن الفكر والتدبر فقد فعلوا ذلك ولم ينظروا إلى المشاهدات التي تنبه الفكر فيها من الغفلة. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [2]. كأنه قال: كذبوا ولم ينظروا إلى ما يردع عن الغفلة من الفكر في المشاهدات.

وكذلك قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [3]، لأن ذلك مشاهد، وكل ما فيه واو مثل أولم يروا فهو تنبيه على ما تقدمه في التقدير أمثال منبهة ولكثرتها، فالتبكيت فيه أعظم، هذا كله في

(١) سورة الشعراء : آية : ٧ .

(٢) سورة الملك : آية : ١٨ ، ١٩ .

(٣) سورة النحل : آية : ٤٨ .

المشاهد وما في حكمه[1]، فالتبكيت عن طريق الخطاب المباشر وما يحمله من المواجهة والشدة في التقريع، أوقع في النفس من تبكيت الغائب، وأن الإنكار على الفاعل في حضرته أقوى في التقريع من الإنكار على غير حاضر ، وتلك سمة في الخطاب القرآني القائم على التأثير والإقناع مع احتفاظه بخصائصه التي تميزه عن الخطابات الأخرى، كالخطابات الشعرية أو الخطابات الحجاجية لاسيما وأن هذا الخطاب القرآني ليس الغاية من الخطاب وإنما هو واسطة للوصول إلى الغاية العظمى وهي التركيز على إثبات وحدانية الله وقدرته على خلق الأشياء الدالة على إلوهيته ووحدانيته، والتعبير القرآني في القراءتين قام على الإنكار والتقريع على عدم التفكر والتدبر فيما حوله من خلق الله الماثل فيه القدرة الإلهية وهو طريق من طرق الخطاب الإقناعي الذي تكمن وظيفته في " محاولة جعل العقل يذعن لما

(١) وما ليس فيه واو مثل ألم يروا فهو مما لم يقدر قبله ما يعطف عليه ما بعده، لأنه من باب ما لا يكثر مثله، وذلك فيما يؤدي إلى علمه الاستدلالات كقوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، الأنعام: ٦، وهذا مما لم يشاهدوه ولكن علموه. وكذلك قوله:﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ يس: ٣١، هو ما الطريق إلى العلم به الاستدلال لا المشاهدة. فهذا ونحوه مما لم يكثر في معلومهم أشباهه، فهم ينبهون عليه ابتداء من غير تقدير تنبيه على شيء مثله مما قبله.[ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي :٢/٤٨٢- ٤٨٤- دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين- الناشر: جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة- الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.]

يطرح عليه من أفكار، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان إلى درجة تبعث على السعي نحو تحقق المطلوب" (١).

فالإقناع الخطابي المباشر صورة من صور التأكيد والتقرير الداعي إلى التسليم والإذعان، الالتفات الواقع في هذا التغاير القرائي ساعد على توسيع المعنى، وحمل صورة من صور الإقناع اللفظي بعد الأمر بالوصول إليه ذهنيا بالتفكر والتدبر في قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ على وجه الخطاب للجميع، توبيخا وتقريعا لهم ، وزيادة في الترهيب والتخويف والتهديد – على ما مر ذكره– .

وثمة وجه آخر ذكره علماء القراءات في هذا التغاير القرائي بإرجاع كل قراءة إلى ما يناسبها لفظا في آي الذكر الحكيم فقرأ حمزة والكسائي ﴿ أَوَلَمْ تَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ ﴾ بالتاء على الخطاب وحجتهما قوله قبلها ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، وقرأ الباقون بالياء إخبارا عن غيب وتوبيخا لهم وحجتهم قوله قبلها ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾" (٢) – كما مر– والله أعلم.

ومما هو منخرط في هذا النوع من طريق حديث الغائب إلى الخطاب المباشر إنكارا وتبكيتا قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾(٣).

---

(١) جماليات الخطاب في النص القرآني " قراءة تحليلية في مظاهر الرؤية وآليات التكوين " – دكتور / لطفي فكري محمد الجودي صـ ١٠٥ ، طبعة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – الأولى – ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م.

(٢) ينظر : حجة القراءات : ٣٩١ .

(٣) سورة الإسراء : آية : ٤١– ٤٣ .

قَرَأَ الْجُمْهُورُ عَمَّا يَقُولُونَ بِيَاءِ الْغَيْبَةِ، وَقَرَأَهُ حَمْزَةُ، وَالْكِسَائِيُّ، وَخَلَفٌ بِتَاءِ الْخِطَابِ [1]، والمعنى : تنزيه من الله تعالى ذكره نفسه عما وصفه به المشركون، فقال: إن ما تضيفون إليه من هذه الأمور ليس من صفته، ولا ينبغي أن يكون له صفة، وقال تعالى (عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا) ولم يقل: تعاليا، كما قال الشاعر: [2]

أَنْتَ الفِدَاءُ لكَعْبَةٍ هَدَّمْتَهَا ... وَنَقَرْتَهَا بِيَدَيْكَ كُلَّ مَنَقَّرِ

مُنِعَ الحَمَامُ مَقِيلَهُ مِنْ سَقْفِهَا ... ومِنَ الحَطِيم فَطَارَ كُلَّ مُطَيَّرِ

وقراءة حمزة والكسائي وخلف بتاء الخطاب ﴿تَقُولُونَ﴾ مع حملها معاني التنزيه والإعظام والإجلاء للمتحدث، فيه نوع من التقريع والتبكيت للمخاطبين، وكأنه يخاطبهم خطاب تنزيه يكسوه وعيد وتهديد، ويقول لهم مخاطبا: ما كان ينبغي لكم بعد ما سمعتموه من القرآن، وبعد أن علمتم دلائل وحدانيته ظاهرة جلية كيف يحدو بكم المقال أن تتقولوا على الله هذ ، ولا شك أن نبرة التهديد والوعيد في

(١) كتاب السبعة في القراءات: ٣٨١، وقراءة كَما يَقُولُونَ وعَمَّا يَقُولُونَ ويسبح بِالْيَاءِ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، وَالْمَعْنَى كَمَا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ إِثْبَاتِ الْآلِهَةِ مِنْ دُونِهِ فَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ [آلِ عِمْرَانَ: ١٢] وَقَرَاءة كُلَّهَا بِالتَّاءِ، وَقَرَاءة فِي الْأَوَّلِ بِالتَّاءِ عَلَى الْخِطَابِ، وَفِي الثَّانِي وَالثَّالِثِ بِالْيَاءِ عَلَى الْحِكَايَةِ، وَقَرَاءة الْأَوَّلَيْنِ بِالْيَاءِ، وَالْأَخِيرَ بِالتَّاءِ، وَقَرَاءة الْأَوَّلَ وَالْأَخِيرَ بِالتَّاءِ وَالْأَوْسَطَ بِالْيَاءِ"[مفاتيح الغيب :٣٤٦/٢٠].

(٢) البيتان شاهدان على أن المصدرين منقر ومطير المضافين إلى كل المعرب مفعولا مطلقا ليس من لفظ الفعل السابق عليهما، لأن المنقر من نقر بتشديد القاف، والمطير من طير بتشديد الياء، مع أن الفعلين السابقين ثلاثيان. ولكن العرب تجيز وضع المصادر المختلفة عن الأفعال السابقة عليها، لأن الحروف الأصول مشتركة في الأفعال والمصادر التي تليها. [ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري : ١٧ / ٤٥٤] ، ولم أقف للأبيات على نسبة وهو موجود كشاهد في كتب التفاسير المتنوعة عند تفسير هذه الآية.

قراءة الخطاب أقوى تأثيراً، وأشد ترهيبا من قراءة الغيبة التي عليها جمهور القراء، وإن كانا معا يحملون معنى التنزيه والتعظيم لله تعالى ذاتا وصفاتا.

فإنه "لما أقام الدليل القاطع على كونه منزها عن الشركاء وعلى أن القول بإثبات الآلهة قول باطل، أردفه بما يدل على تنزيهه عن هذا القول الباطل فقال: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ وقد ذكرنا أن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، ثم قال: ﴿ وَتَعَالَىٰ ﴾والمراد من هذا التعالي الارتفاع وهو العلو، وظاهر أن المراد من هذا التعالي ليس هو التعالي في المكان والجهة، لأن التعالي عن الشريك والنظير والنقائص والآفات لا يمكن تفسيره بالتعالي بالمكان والجهة، فعلمنا أن لفظ التعالي في حق الله تعالى غير مفسر بالعلو بحسب المكان والجهة".(١)

ولما كان قولهم موصوفًا بالقبح، موسوما بالسوء في قولهم بأن الله اصطفاهم بالبنين، وأنه جعل الملائكة إناثا، وفي ادعائهم بأن مع الله آلهة أخرى، كل ذلك وأمام أعينهم الأدلة والبراهين على كذب افترائهم، لكل ذلك ناسب أن يصف ذلك التنزيه وتلك العظمة وهذا العلو المنصوص عليه بكونه﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾، أي كَبِيراً متباعداً غاية البعد عما يقولون، فإنه في أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته، واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه.(٢) " فإن قيل: ما الفائدة في وصف ذلك العلو بالكبير؟ قلنا: لأن المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والأضداد والأنداد منافاة بلغت في القوة والكمال إلى حيث لا تعقل الزيادة عليها، لأن المنافاة بين الواجب لذاته

(١) مفاتيح الغيب : ٢٠ / ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(٢) تفسير البيضاوي: ٢ / ٢٥٦ .

والممكن لذاته، وبين القديم والمحدث، وبين الغني والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير"[١].

وفي مدارك التنزيل: " وصف العلو بالكبر مبالغة في معنى البراءة والبعد مما وصفوه به" [٢] .

وهذا السياق المقالي يستدعي أن يكون الكلام حاملا معاني التبكيت والوعيد والتهديد عقوبة لتطاولهم على ذات الله، وافترائهم كذبا وبهتانا على صفاته تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وتلك الحالة تتطلب المواجهة في التبكيت والتهديد؛ لأن وعيد المخاطب أشد تأثيرا من تهديد ووعيد الغائب، حيث إن الإنكار على المخاطب في ذاته تبكيت وتنكيل وإهانة وإذلال، وهذا مفهوم قراءة الخطاب﴿تَقُولُونَ﴾ بالتاء ،على هذا التغاير فإن الوجوه متعددة، والمعاني مختلفة، وكلها محمول عليها الألفاظ ، موضحة وموسعة للمفهوم المراد.

"فالوجهُ في قراءةِ الغيبِ فيهما أنه: حَمَل الأولَ على قولِهِ: {وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً}، وحَمَل الثاني عليه، وفي الخطاب فيهما أنه حمل الأولَ على معنى: قل لهم يا محمد لو كان معه آلهةٌ كما تقولون، وحَمَل الثاني عليه. وفي قراءة الغيبِ في الأولِ أنَّه حَمَله على قوله «وما يزيدهم» والثاني التفت فيه إلى خطابهم." [٣]، فالمقصود من هذا الالتفات في هذا التغاير القرائي هو قرع أسماع المكذبين الذين

(١) مفاتيح الغيب : ٢٠ / ٣٤٧ .

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل- تفسير النسفي - حافظ الدين النسفي : ٢/ ٢٥٩- حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي- راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو- الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

(٣) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون - السمين الحلبي : ٧ / ٣٦١- المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط- الناشر: دار القلم، دمشق.

افتروا على الله الكذب، وأن يصل هذا الأسلوب ممن نزه نفسه وعظمها إجلالا وإكبارا وصولا مباشرا دون واسطة تهدي شدته، أو وسيط يذهب بحدته، فالقصد التقريع والتبكيت، والمباشرة فيها أشد وأقوى ، والله أعلم.

ومما هو من التهديد والوعيد في التغاير القرائي قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

المعنى : تبارك الذي له سلطان السموات السبع والأرض، وما بينهما من الأشياء كلها، جار على جميع ذلك حكمه، ماض فيهم قضاؤه، فكيف يكون له شريك من كان في سلطانه وحكمه فيه نافذ، وعنده علم الساعة التي تقوم فيها القيامة، ويُحشر فيها الخلق من قبورهم لموقف الحساب.

وقد قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ بِالتَّحْتِيَّةِ (٢)، تَبَعًا لِأُسْلُوبِ الضَّمَائِرِ الَّتِي قَبْلَهُ، فأجروا الكلام على لفظ ما تقدمه إذ كان في سياقه ليأتلف على نظام واحد وقَرَأَ الْجُمْهُورُ تُرْجَعُونَ بِالْفَوْقِيَّةِ عَلَى الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ وحجتهم قوله قبلها ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾(٣)، فتلك الصلة اللفظية أو التناسب اللفظي لكل من القراءتين يحمل بين طياته صلات معنوية، أو أغراضا بلاغية تتناسب والسياق الحالي للكلام لاسيما في قراءة الجمهور المبنية على تغاير القراءات من الغيبة إلى الخطاب القائم على المواجهة في التهديد والنذير الشديد،

(١) سورة الزخرف : آية :٨٣ ـ ٨٥

(٢) كتاب السبعة في القراءات: ٥٨٩ ، إتحاف فضلاء البشر : صـ ٤٩٧

(٣) سورة الزخرف : آية :٧٨ . وينظر : حجة القراءات : ٦٥٥

وما تحمله تلك المواجهة المباشرة من بيان عظمة المتحدث الدال على عظمته بتعداد ما يدل على حكمه وحكمته، ونفاذ أمره، وقوة سلطانه، ومتحدث تلك حاله حين مواجهة المذنب أو المخطئ يكون التهديد منه أشد، والتقريع أوقع، والإنذار بسوء العاقبة أبلغ ، " فقرأ الجمهور ترجعون بالفوقية على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمباشرة بالتهديد."(١).

كما أن التعبير بطريق الخطاب فيه نوع من التوبيخ لسوء فعالهم، فخاطبهم خطاب الغاضب المنكر عليهم بمعنى كيف تخوضون وتلهون، وتقولون على الله الكذب وأنتم موقنون برجوعكم إليه، والوقوف بين يديه للسؤال؟ فالتعبير بالخطاب المباشر به مع التخويف والتهديد إنكار وتوبيخ، زيادة عما في قراءة الغيبة من معنى بسط السلطان، والإحكام النافذ يوم الوقوف أمام الله للحساب، وكأنه يقول لهم: عجبا يا من يئول أمركم إليه كيف لا تتقون وأنتم موقنون بأنكم تسألون بين يديه؟، ولهذا السبب يقع حب الدنيا في قلوب الناس ، ولا يذكرون من أمر الآخرة شيئا ، ومن ثم خاطبهم الله خطاب المنكر الموبخ لهم بقوله . ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ (٢) أَيْ آثَرُوا شَهَوَاتِهِمُ الْعَاجِلَةَ وَلَمْ يَحْسُبُوا لِلْآخِرَةِ حِسَابًا ،وقد قَرَأَ الْجُمْهُورُ تُحِبُّونَ وتَذَرُونَ بِتَاءٍ فَوْقِيَّةٍ عَلَى الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ فِي مَوْعِظَةِ الْمُشْرِكِينَ مُوَاجهَة بالتفريع لِأَن ذَلِكَ أَبْلَغُ فِيهِ. وَقَرَأَهُ ابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ بِيَاءٍ تَحْتِيَّةٍ عَلَى نَسَقِ ضَمَائِرِ الْغَيْبَةِ السَّابِقَةِ،(٣) وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْإِنْسانُ فِي

(١) التحرير والتنوير : ٢٥ / ٣٣١

(٢) سورة القيامة : آية : ٢٠ ، ٢١

(٣) كتاب السبعة في القراءات: ٦٦١ .

قَوْلِهِ: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ (١)، وهكذا في كل آيات التغاير القرائي الواقع فيها الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، وكان المخاطب من ذوي الأخلاق الفاسدة، أو الأعمال الكاسدة،أو ممن ضل سعيه في الحياة الدنيا، وكان الانتقال من مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الحاضر المشاهد من قبيل المباشرة في التهديد والتقريع، ومثل هذا التعبير المقالي أشد تأثيرا، وأقوى فاعلية على نفس المتلقي تقريعا وتحذيرا.

وحين تقع تلك الصورة من التغاير القرائي وكان المخاطب من أهل التقوى فإن الانتقال من سياق الغيبة إلى سياق المخاطب الحاضر، يكون جريا على أنساق التكريم والتشريف بمخاطبة الله جل في علاه ، وفوزهم بعز الحضور في مقام رب العالمين، ومثل هذا كثير في آي الذكر الحكيم، ومما هو منه قوله تعالى : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٢)

الضمير في قوله: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ ﴾ للنبي محمد – ﷺ – ونسبة التعليم إلى ضمير المتكلم وهو الله جل في علاه إشارة إلى أنه معلم من عند الله فعلمه ما أراد ولم يعلمه ما لم يرد، ومعنى ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ ﴾ ما ينبغي له على مفهومه الظاهر وهو أن الشعر ما كان يليق به ولا يصلح له، وذلك لأن الشعر يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن، فالشارع يكون اللفظ منه

(١) سورة القيامة : آية : ١٤ ، ١٥

(٢) سورة يس : آية : ٦٩ ، ٧٠

تبعا للمعنى، والشاعر يكون المعنى منه تبعا للفظ، لأنه يقصد لفظا به يصح وزن الشعر أو قافيته فيحتاج إلى التحيل لمعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ. (١)

"ونص الآية صريح في أنها تحديد لصفة القرآن وبيان لمهمته ورسالته، وليست إعلاناً عن موقف عداء للشعر" (٢) وقوله عقب هذا الكلام ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ هو من قبيل الجمل المفصولة المؤكدة للجمل المنفية: وهو من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(٣)

أفلا ترى أن الإثبات في الآيتين جميعا تأكيد وتثبيت لنفي ما نفي، فإثبات ما علمه النبي صلى الله عليه وسلم وأوحى إليه ذكرًا وقرآنًا تأكيد وتثبيت لنفي أن يكون قد علم الشعر –وكذلك إثبات ما يتلوه عليهم وحيًا من الله تعالى تأكيد وتقرير لنفي أن يكون نطق به عن هوى.(٤)

وقد قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَيَعْقُوبُ﴿لِتُنْذِرَ﴾ بِتَاءِ الْخِطَابِ عَلَى الِالْتِفَاتِ مِنْ ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ:﴿عَلَّمْنَاهُ﴾إِلَى ضَمِيرِ الْخِطَابِ. وَقَرَأَهُ الْبَاقُونَ بِيَاءِ الْغَائِبِ، أَي ﴿لِّيُنذِرَ﴾ النَّبِي الَّذِي عَلَّمْنَاهُ جريا على النسق القرآني في

(١) ينظر : مفاتيح الغيب : ٢٦ / ٣٠٤ ، ٣٠٥ بتصرف .

(٢) ينظر : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق – عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ : ص ٥٣ الناشر: دار المعارف– الطبعة: الثالثة

(٣) سورة النجم : آية :٣ ، ٤ .

(٤) الفصل والوصل في القرآن الكريم – منير سلطان – ص ٥٩ – الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية– الطبعة: الثانية

الحديث بصورة الغيبة في قوله﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾[1]، هذا من ناحية تلاؤم الأنساق اللفظية في القراءتين.

أما السياق الحالي الداعي إلى ذلك التغاير القرائي فهو قصد التشريف والتعظيم من قدر النبي محمد – ﷺ – ورفعة درجته بخطابه خطاب الحاضر المشاهد المكرم بحضور جلال الله في علاه لفظا بالخطاب المباشر، ومعن بالحضور القلبي، لاسيما بعد أن تقول عليه بعض الأقاويل بأنه شاعر، وأن ما يقوله من أساطير الأولين اكتتبها، زيادة عما في خطاب الحضور نوع من تثبيت قلب النبي – ﷺ – وبيان أنه على عين الله حين الإنذار والتبليغ بما أمر به، وكأنه يقول يا محمد بلغ ما أمرت به ونحن معك شاهدون حاضرون، ولا يمنعنك قولهم عنك كذبا وزوا أنك شاعر، فما كنت كذلك وما ينبغي أن تكون كذلك، فالخطاب المباشر في تلك الصورة من التغاير القرائي يحمل معنى تأييد الله للنبي – ﷺ – والربط على قلبه، ومثل هذا يكون بخطاب المباشر أشد وأقوى ، وأكثر بيانا ووضوحا، وأشد تأثيرا على النفس. والله أعلم.

ومما هو من هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ

(١) ينظر : حجة القراءات : ٦٠٣

ﵟالْعَظِيمِ ﵞ [1]، فجملة ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والمعنى: أن الله سبحانه يخرج ما في هذا العالم الإنساني من الخفاء بعلمه له، كما يخرج ما خفي في السموات والأرض، ثم بعد ما وصف الرب سبحانه بما تقدم مما يدل على عظيم قدرته وجليل سلطانه ووجوب توحيده وتخصيصه بالعبادة قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وخص العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات كما ثبت ذلك مرفوعا إلى ﷺ.[2].

وقد قرأ الجمهور بالتحتية في الفعلين، وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وحفص والكسائي بالفوقية للخطاب، أما القراءة الأولى فلكون الضمائر المتقدمة ضمائر غيبة، وأما القراءة الثانية فلكون قراءة الزهري والكسائي فيها الأمر بالسجود والخطاب لهم بذلك، فهذا عندهم من تمام ذلك الخطاب ، وعليه فإن توجيه القراءتين يعود إلى صورة القراءات الواردة في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ تقرأ (ألّا يَسْجدوا) ويكون (يَسْجُدُوا) فِي موضع نصب، كذلك قرأها حَمْزَةُ. وقرأها أَبُو عبد الرحمن السلمي والحسن وحُمَيْد الأعرج مخففة (أَلَا يَسْجُدُوا) وعلى ذلك تكون قراءة

---

(١) سورة النمل: آيات :٢٠ – ٢٥ .

(٢) ففي الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: الْكُرْسِيُّ: مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يُقْدَرُ قَدْرُهُ] ينظر: العظمة – أبو محمد عبد الله المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني : ٢ / ٥٨٢– ت: رضاء الله ابن محمد إدريس المباركفوري– ط: دار العاصمة – الرياض–الأولى، ١٤٠٨، والتوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل – بن إسحاق السلمي النيسابوري: ١ / ٢٤٨ – ت: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان– ط: مكتبة الرشد –الرياض –الخامسة، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م وينظر : فتح القدير للشوكاني: ٤ / ١٥٥ . وفتحُ البيان في مقاصد القرآن – محمد صديق خان البخاري القِنَّوجي : ٢/ ١٩٦ ، ت: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري– ط: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت– ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م.

الجمهور بالياء التحتية في الفعلين على مقتضى ظاهر الكلام وقراءة الفعلين بالتاء الفوقية للخطاب على خلاف مقتضى الظاهر من الكلام وهو من قبيل الالتفات من الغيبة للخطاب وقرأ أيضا بالتخفيف الكسائي عَلَى معنى أَلَا يا هَؤُلَاءِ اسْجُدُوا فيضمر هَؤُلَاءِ، ويكتفي منها بقوله (يا) قَالَ: وسمعتُ بعض العرب يقول: أَلَا يا ارحمانا، أَلَا يا تَصَدَّقا علينا قَالَ: يعنيني وزميلي. وقال الشاعر: [1].

أَلَا يَا اسْلِمِي يَا دَارَ مَيّ عَلَى البَلَى وَلَا زَالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعَائِكَ القَطْرُ

وعلى تلك القراءة يكون الكلام على مقتضى الظاهر ، وعَن عيسى الهمداني قَالَ: ما كنت أسمع المشيخة يقرءونها إلا بالتخفيف عَلَى نية الأمر. وهي فِي قراءة عبد الله (هَلّا تَسجدونَ لله) بالتاء فهذه حُجّة لمن خَفّف. وَفِي قراءة أُبَيّ (أَلَا تَسْجدونَ لله الَّذِي يعلم سِرّكم وما تَعلنون) وهو وجه الكلام لأنها سَجدة ومن قرأ (أَلّا يَسْجُدوا) فشدّد فلا ينبغي لَهَا أن تكون سجدة لأن المعنى: زين لهم الشيطان ألّا يسجدوا . والله أعلم بذلك. وهي أيضا – هنا جاءت على مقتضى الظاهر من الكلام .

ومما هو من ذلك تكريما وتشريفا قوله تعالى في وصف ما أعده للمتقين يوم القيامة : ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ .[2]

(١) البيت لذي الرمة في ديوانه – شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب– أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي : ١ / ٥٥٩ ت: عبد القدوس أبو صالح– ط: مؤسسة الإيمان جدة– الأولى،١٩٨٢ م ١٤٠٢هـ، والشاهد: «ألا يا اسلمى»، ياء: حرف نداء، واسلمى: فعل أمر ..وياء النداء لا تدخل على الفعل، فوجب تقدير اسم محذوف كأنه قال: يا هند اسلمي.

(٢) سورة ص : آية : ٤٩. ٥٣

فقولـه تعـالىّ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾: الْإِشَارَةُ هنـاْ إِلَـى مَـا هُوَ مُشَـاهَدٌ عِنْـدَهُمْ مِـنَ النَّعِيمِ المقـيم، وَقَـرَأَ الْجُمْهُـورُ: ﴿تُوعَدُونَ ﴾ بِتَـاءِ الْخِطَـابِ فَهُـوَ عَلَـى الالْتِفَـاتٌ مِـنَ الْغِيبَـةِ إِلَـى الْخِطَـابِ لِتَشْـرِيفِ الْمُتَّقِـينَ بِعِـزِّ الْحُضُـورِ لِخِطَـابِ اللَّـهِ تَعَالَى،(١)، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَحْدَهُ ﴿يُوعَدُونَ ﴾ بِيَاءِ الْغَيْبَـةِ (٢)، جريـا لمـا عليـه النسـق القرآنـي مـن التعبيـر بالاسـم الظـاهر الـذي يقـوم مقـام الغائـب تعـدادا لمظاهر النعيم المقيم الذي أعده الله للمتقين

ويلحظ من تلك المثل التي وقع الالتفات فيها بسبب تنوع القراءات القرآنية من الغيبـة إلـى الخطـاب أن علمـاء القراءات القرآنيـة المعنيين بتوجيههـا وبيـان معانيهـا كـانوا فـي معظـم شواهدهم أو كلامهـم عن وقـوع صـور الالتفـات عن طريـق التغاير القرائي يظهرون الأثر البلاغي للتعبير به، إتماما للفائدة، وحرصا على إيصال المراد من القراءة في أوضح صورة ، وأتم بيان، كما أنهم في بعض المثل لم يكن أحدهم يقف عند توضيح أسلوب الالتفات، وإنما يشير إلى وجوه بلاغية مترتبة على تغاير القراءات، ويتلمس دورها في إثراء بلاغة القرآن الكريم والتي تعد وجها من وجوه إعجازه ٠

(١) التحرير والتنوير : ٢٣/ ٢٨٤

(٢) كتاب السبعة في القراءات: ٥٥٥ ، و النشر في القراءات العشر : ٢ / ٣٦١ .

وفي الختام ... لا شك أنه قد بُنِي على هذا التغاير القرائي لآيات القرآن الكريم صور ومعان أخرى لم تكن موجودة فيما لو وقف على قراءة واحدة، ولا ينافي ذلك التمسك بالمعنى الأول، فكلا القراءتين وردتا عن النبي – ﷺ– ولذا لا ينبغي أن نحكم على قراءة بأنها أبلغ من الأخرى، أو أكثر فصاحة من أختها، تأدبا مع كلام الله وجلال قدسيته ، فمن المهم معرفة توجيه القراءات، وفائدته أن يكون دليلا على حسب المدلول عليه أو مرجحا، إلا أنه ينبغي التنبيه على شيء، وهو أنه قد ترجح إحدى القراءتين على الأخرى، ترجيحا يكاد يسقطها، وهذا غير مرضي ؛ لأن كلاهما متواتر"(١)، " فالسلامة من هذا عند أهل الدين إذا صحت القراءتان عن الجماعة أن لا يقال :إحداهما أجود من الأخرى، لأنهما جميعا عن النبي ﷺ فيأثم من قال ذلك، وكان رؤساء الصحابة . رحمهم الله . ينكرون مثل هذا ."(٢)، وكان ثعلب يقول : "إذا اختلف إعرابان في القرآن لم أفضل إعرابا على إعراب ، فإذا خرجت إلى كلام الناس فضلت الأقوى"(٣)، فالسلامة عند أهل الدين إذا صحّت القراءتان ألا يقال إحداهما أجود، لأنهما جميعاً عن النبيﷺ، فيَأثَم مَنْ قال ذلك، وإن كان رؤساء الصحابة ينكرون مثل هذا.(٤) ، وقال أبو شامة: أَكْثَرَ

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن،: جلال الدين السيوطي :١ / ١٢٢ ط: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان : الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

(٢) إعراب القرآن : أبو جعفر النَّحَّاس النحوي :٥ / ٤٣ وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم ط: دار الكتب العلمية، بيروت الأولى، ١٤٢١ هـ

(٣) الإتقان في علوم القرآن: ، جلال الدين السيوطي : ١ / ٢٨١ – المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم–: الهيئة المصرية العامة للكتاب–: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

(٤) إعراب القرآن –للنَّحَّاس: ٥ / ٤٣، وينظر: المنار في علوم القرآن مع مدخل في أصول التفسير ومصادره – الدكتور محمد علي الحسن : ٣١٢ قدم له: الدكتور محمد عجاج الخطيب – مؤسسة الرسالة – بيروت– الأولى، ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م.

المصنفون من الترجيح بين قراءة مالك ومَلِكِ حتى إن بعضهم يبالغ إلى حد يسقط وجْهَ القراءة الأخرى، وليس هذا بمحمود بعد ثبوت القراءتين. (١)

كما يلاحظ من خلال تتبع القراءات القرآنية أن صور الالتفات تتفاوت نماذجها من حيث الكثرة والقلة، والندرة، بل وعدم الوقوع ، فبينما تكثر نماذج الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، ثم من الغيبة إلى التكلم ، ثم تقل نماذج الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ثم تقل نماذجه من التكلم إلى الغيبة ، فنجد بقية الصور في باب تغاير القراءات غير موجودة، وإن وقع منها شيء فتراه نادر الوقوع، وليس بظاهرة عامة كسابقيها، وإن هذا التفاوت ربما يهدينا إلى دليل أسلوبي يحكم هذه الظاهرة على عمومها، وهو أن حديث المواجهة والإقبال على المخاطب، وحديث النفس هو الشائع في القراءات، وما ذلك إلا لاستحضار الذات، وجذب المتلقين، ولفت انتباههم إلى تأمل المعاني التي تتعلق بها مواضع العدول، والتفكير في الأغراض التي تنعقد عليها ترغيبا أو ترهيبا في مقامات الوعد أو الوعيد، فعنصر التنبيه في الالتفات عنصر أصيل يحصل من التحول والعدول عن مقتضى الظاهر، وفي هذا العدول يكمن السر، وإليه يكون القصد حين التفكير فيه للنفاذ إلى مغزاه، الأمر الذي يؤكد عندنا وجاهة مذهب المفسرين والبلاغيين حين ذهبوا إلى أن لكل موضع من مواضع الالتفات فوائد تختص به ، وإن كانت له فائدته العامة التي تحكم حركة التعبير به من التطرية لنشاط السامع ، وإيقاظ إصغائه إلى الكلام.(٢) والله أعلم بمراده في كتابه .

(١) إبراز المعاني من حرز الأماني – أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة : صـ ٧٠ الناشر: دار الكتب العلمية

(٢) ينظر:التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية د/ أحمد سعد : ص ٣٤١ ، ٣٤٢

الخاتمة

الحمد لله بداية لا تنتهي، ونهاية لا تزال تبدأ وبعد ...

فقد انتهيت – بفضل الله تعالى وتوفيقه – من دراسة موضوع التغاير القرائي وأثره في تأسيس صور الالتفات في القرآن الكريم وقد توصلت في تلك الدراسة إلى عدة نتائج من أهمها :

أولا: **إجماع علماء المسلمين على أن الاختلاف في القراءات إنما هو اختلاف تنوع وتغاير، لا اختلاف تضاد وتناقض، الغرض منه تعدد المعاني واتساعها، وأن الإكثار من المعاني في الآية الواحدة هو مقصد من مقاصد الاختلاف في القراءات القرآنية، وهذه القراءات التي يتغاير فيها المعنى كلها حق وكل قراءة مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية، يجب الإيمان بها كلها وإتباع ما تضمنته من المعاني علماً وعملاً .**

ثانيا : أن المفسرين لم يقفوا عند حد الجمهور للالتفات وإنما ذهبوا في ذلك مذهب السكاكي الذي لا يشترط تقديم طريق من طرق التكلم ، بل جعل من الالتفات ما جاء مخالفا لمقتضى الحال من الكلام .

ثالثا : يستخدم المفسرون قواعد تفسيرية عند بناء العملية التفسيرية للفظة المفردة، أو للجمل التركيبية في آي الذكر الحكيم وهي أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر كلها محتملة، بمعنى أنه إذا احتمل اللفظ معاني عدة ولم يمتنع إرادة الجميع حُمِل عليها، وتلك القواعد تستخدم عند احتمال اللفظ لمعنيين فأكثر [1].

---

(١) ينظر: مختصر في قواعد التفسير– خالد بن عثمان السبت :١ /٢٩ دار ابن القيم –دار ابن عفان الأولى ١٤٢٦هـ.

وانتقال التعبير من حالة إلى حالة التفاتا ، يجعل الكلام يحتمل معاني لم تكن ما لو جاء الكلام على صورة واحدة من التعبير، ويجعل المفسر أمام تركيبين مختلفين لفظا ومعنى، وإن كان ظاهره لفظا واحدا مقروءا ومسموعا، وتلك سمة بلاغية للصورة التركيبية لفن الالتفات، لاسيما ما جاء عن طريق التغاير القرائي، الذي يقع التغيير فيه بالإبدال بين أحرف المضارعة "نون التكلم – وتاء الخطاب – وياء الغائب" .

رابعا : أن المفسرين وأصحاب كتب القراءات لم يمعنوا النظر في الفائدة البلاغية من الالتفات في هذا التغاير القرائي بل اكتفوا– في الغالب الأعم – بالعرض السطحي دون الانتقال من مرحلة الوصف وذلك بقولهم: وهو التفات، أو "على الالتفات" إلى مرحلة التعليل والتحليل للغرض أو المغزى من هذا الالتفات، أو المعنى الزائد في تغاير القراءة أو تعددها ، سواء في باب الوعد والاستعطاف والإقبال، أو في معرض الوعيد بمواجهة المتلقيين بالتوبيخ والإنكا، والإعراض عنهم لسوء فعلهم، كما درج عليه في صور الالتفات السابقة .

خامسا : اشتملت صور الالتفات في باب التغاير القرائي على كثير من الظواهر البلاغية المتصفة بإيجاز العبارة مع اتساع المعاني، وذلك باحتمال المعنى في القراءتين على درجة واحدة من الإفادة والوضوح دون زيادة حرف في مبنى الكلمة، أو كلمة في جملة أو جملة في سياق تركيبي، وقد أوقفنا هذا الإيجاز على جمال التعبير ، ودقة التوظيف ، فكأن كل قراءة من القراءات الواقع فيها طرق الالتفات جاءت في موطنها، تحاكي مبناها معناها، ويشابه المعنى فيها السياقين: المقالي والحالي داخل آي القرآن الكريم وهذا باب من أبواب الإعجاز، وطريق من طرق التفرد، لأنه لا يمكن حمل الكلام على معناه مع اختلاف صورته القرائية إلا إذا

اتحد السياق المقالي مع السياق الحالي على حمل المعاني وقبول تطبيقها على كلام الله تعالى .

سادسا : لا يمكن فهم المعنى المراد من الطريقين المختلفين في التعبير في باب التغاير القرائي إلا من خلال الأنماط التركيبية الناتجة من ارتباط الألفاظ مع اختلاف طرق التعبير بها عن المعاني المنوط بها هذا الاختلاف القرائي، ويبقى لكل تركيب أثره البلاغي، ودلالته التركيبية الخاصة به ، وفي قبول معانيها توسعة في المفهوم، وتربية للفائدة، وتعدد للمعاني مع وضوحها .

سابعا : صورة الالتفات من الغيبة إلى التكلم في التغاير القرائي لا تكاد تخرج عن مقام التعظيم وتأتي دائما في معرض تعداد النعم، وبيان أن تلك الأمور لا تخرج إلا من منافذ العزة، ومواطن التملك والاقتدار، وعظمة المعطي تدل على عظم العطاء، أو في مقام العقاب المستحق يوم القيامة جزاء ما قدموه من اعتقادات خاطئة، أو أعمال فاسدة في الدنيا ودائما ما يكون التعبير عنها بما يطلق عليها عند علماء اللغة بـ "نون العظمة "، ويرد الالتفات إلى التكلم في مقام الوعد بغرض الاهتمام بالمتلقين، وزيادة الاعتناء بهم، بتشريفهم بالتكلم، وما يستتبعه من الدلالة على وفرة الحب وجزالة الجزاء، فكل ما يصدر عن العظيم عظيم.

ثامنا : التغاير القرائي الواقع فيها الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، وكان المخاطب من ذوي الأخلاق الفاسدة، وكان الانتقال من مخاطبة الغائب إلى مخاطبة المشاهد من قبيل المباشرة في التهديد والتقريع، ومثل هذا التعبير المقالي أشد تأثيرا، وأقوى فاعلية على نفس المتلقي تقريعا وتحذيرا، وعلى النقيض حين تقع تلك الصورة من التغاير القرائي وكان المخاطب من أهل التقوى فإن الانتقال من سياق الغيبة إلى سياق المخاطب الحاضر، يكون جريا على أنساق التكريم والتشريف بمخاطبة الله جل في علاه، وفوزهم بعز الحضور في مقام رب العالمين .

تاسعا : من خلال تلك الدراسة تبين أن صور الالتفات تتفاوت نماذجها من حيث الكثرة والقلة، والندرة، بل وعدم الوقوع، فبينما تكثر نماذج الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ثم من الغيبة إلى التكلم ، ثم تقل نماذج الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ثم تقل نماذجه من التكلم إلى الغيبة، فنجد بقية الصور في باب تغاير القراءات غير موجودة، وإن وقع منها شيء فتراه نادر الوقوع، وليس بظاهرة عامة كسابقيها.

عاشرا : أن هذا التفاوت في الوقوع بين صور الالتفات بين الكثرة والقلة والندرة، ربما يهدينا إلى دليل أسلوبي يحكم هذه الظاهرة على عمومها، وهو أن حديث المواجهة والإقبال على المخاطب، وحديث النفس هو الشائع في القراءات، وما ذلك إلا لاستحضار الذات، وجذب المتلقين، ولفت انتباههم إلى تأمل المعاني التي تتعلق بها مواضع العدول، والتفكير في الأغراض التي تنعقد عليها ترغيبا أو ترهيبا في مقامات الوعد أو الوعيد. فعنصر التنبيه في الالتفات عنصر أصيل يحصل من التحول والعدول عن مقتضى الظاهر، وفي هذا العدول يكمن السر، وإليه يكون القصد حين التفكير فيه للنفاذ إلى مغزاه، الأمر الذي يؤكد عندنا وجاهة مذهب المفسرين والبلاغيين حين ذهبوا إلى أن لكل موضع من مواضع الالتفات فوائد تختص به ، وإن كانت له فائدته العامة التي تحكم حركة التعبير به من التطرية لنشاط السامع ، وإيقاظ إصغائه إلى الكلام.[1]

(١) ينظر:التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية د/ أحمد سعد : ص ٣٤١ ، ٣٤٢

التوصيات :

أوصي جميع الباحثين في مجال الحقل البلاغي أن يولوا وجوههم شطر التغاير القرائي لآي الذكر الحكيم فلا يزال المجال واسعا ، وما تزال النبتة غضة طرية في أرض خصبة نقية، للدراسة البلاغية الجادة، فكلامه تعالى لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد، وكلما أعطاه الدارس اجتهادا وإخلاصا، ألهمه حكمة ونورا .

والله تعالى أعلى وأعلم وأعز وأحكم .

ثبت المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ

ثانيا :

١- أبجد العلوم- أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي الناشر: دار ابن حزم الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م .

٢- إبراز المعاني من حرز الأماني – أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة : الناشر: دار الكتب العلمية .

٣- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر : أحمد بن محمد بن أحمد ابن عبد الغني الدمياطيّ، شهاب الدين الشهير بالبناء تحقيق: أنس مهرة ط: دار الكتب العلمية – لبنان : الثالثة، ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ.

٤- الإتقان في علوم القرآن: ، جلال الدين السيوطي : المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم: الهيئة المصرية العامة للكتاب-: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٥- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" تفسير أبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٦- أساليب بلاغية، الفصاحة – البلاغة – المعاني : أحمد مطلوب أحمد وغيره -الناشر: وكالة المطبوعات الكويت الأولى، ١٩٨٠ م.

٧- أسباب نزول القرآن – أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، النيسابوري – المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان – الناشر: دار الإصلاح – الدمام- الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م،

٨- أسلوب الالتفات في البلاغة العربية د حسن طبل – دار المعارف.

٩- الأصلان في علوم القرآن د. محمد عبد المنعم القيعي- ، الطبعة: الرابعة مزيدة ومنقحة ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م – .
١٠- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم – إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي : حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
١١- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق- عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ الناشر: دار المعارف- الثالثة.
١٢- إعراب القرآن : أبو جعفر النَّحَّاس المرادي النحوي – وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم ، طبعة ، دار الكتب العلمية، بيروت : الأولى، ١٤٢١ هـ.
١٣- إعراب القرآن وبيانه – محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية – سورية: الرابعة، ١٤١٥ هـ .
١٤- الإقناع في القراءات السبع: أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري الغرناطي، أبو جعفر، المعروف بابن البَاذِش طبعة : دار الصحابة للتراث.
١٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي- تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ،ط: دار إحياء التراث العربي بيروت الأولى – ١٤١٨ هـ .
١٦- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين الخطيب القزويني تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ط : دار الجيل بيروت: الثالثة .
١٧- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن حيان الأندلسي: تحقيق: صدقي محمد جميل ، طبعة : دار الفكر بيروت: ١٤٢٠ هـ.

١٨- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد الحسني: تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان،الناشر: الدكتور حسن عباس زكي القاهرة: ١٤١٩ هـ.

١٩- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدُّرة – عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي ط : دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.

٢٠- البرهان في علوم القرآن محمد بن عبد الله الزركشي تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ط:دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م .

٢١- البلاغة العربية:عبد الرحمن حَبَنَّكَة: طبعة : دار القلم،دمشق، الدار الشامية ،بيروت :الأولى ١٤١٦ هـ١٩٩٦م.

٢٢- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د/ محمد محمد أبوموسى : مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية .

٢٣- بيان المعاني [مرتب حسب ترتيب النزول]- عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني – الناشر: مطبعة الترقي – دمشق- الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٥ م .

٢٤- تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري – تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار ، دار العلم للملايين – الرابعة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٢٥- تحبير التيسير في القراءات العشر: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف –د. أحمد محمد مفلح القضاة ط: دار الفرقان – الأردن عمان : الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢٦- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور الناشر: الدار التونسية للنشر تونس ١٩٨٤ هـ.

٢٧- التعريفات- علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر- الناشر: دار الكتب العلمية بيروت -لبنان- الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٢٨- تفسير ابن فورك: لمحمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، تحقيق: علال عبد القادر بندويش (ماجستير) جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية الأولى: ١٤٣٠ - ٢٠٠٩ .

٢٩- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن- للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري ، إشراف ومراجعة: هاشم محمد علي بن حسين مهدي- ط: دار طوق النجاة، بيروت - لبنان- الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٣٠- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير - تحقيق: محمد حسين شمس الدين: دار الكتب العلمية،- بيروت : الأولى - ١٤١٩ هـ.

٣١- تفسير الماوردي = النكت والعيون - أبو الحسن علي بن محمد بن محمد ابن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي - المحقق: السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم- ط: دار الكتب العلمية - بيروت

٣٢- تفسير المراغي للشيخ أحمد بن مصطفى المراغي - مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر- الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

٣٣- التفسير المظهري - المظهري محمد ثناء الله: تحقيق:غلام نبي التونسي، ط: مكتبة الرشدية باكستان: ١٤١٢هـ

٣٤- التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ـ دكتور /أحمد سعد محمد طبعة : مكتبة الآداب ، الثانية ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م ٠

٣٥- التوجيه اللغوي للقراءات السبع عند أبي علي الفارسي في كتابه الحجة – دراسة تطبيقية على مستويات التحليل اللغوي – د/ عمر خاطر عبد الغني وهدان : قدم له د/ عبده الراجحي ، د/ مجدي محمد حسين – طبعة مكتبة الآداب – القاهرة الأولى ١٤٣٠هـ ، ٢٠٠٩م .

٣٦- التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل – أبو بكر محمد بن إسحاق السلمي النيسابوري: المحقق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان– الناشر: مكتبة الرشد السعودية الرياض الخامسة،١٤١٤هـ – ١٩٩٤م

٣٧- التيسير في القراءات السبع : عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني: تحقيق : اوتو تريزل ط: دار الكتاب العربي – بيروت : الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

٣٨- جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير الطبري المحقق: أحمد محمد شاكر،ط: مؤسسة الرسالة : الأولى، ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م

٣٩- جامع البيان في القراءات السبع: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني طبعة : جامعة الشارقة – الإمارات: الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م .

٤٠- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري –: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤١- الجدول في إعراب القرآن الكريم- محمود بن عبد الرحيم صافي طبعة : - مؤسسة الإيمان، بيروت الرابعة، ١٤١٨ هـ،
٤٢- جماليات الخطاب في النص القرآني " قراءة تحليلية في مظاهر الرؤية وآليات التكوين "- دكتور / لطفي فكري محمد الجودي ، طبعة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – الأولى – ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.
٤٣- الجواهر الحسان في تفسير القرآن : أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط : دار إحياء التراث العربي بيروت الأولى - ١٤١٨ هـ .
٤٤- حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني – محمد بن عرفة الدسوقي المحقق: عبد الحميد هنداوي- الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.
٤٥- حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي - الناشر: جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية. عام النشر: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٥ م.
٤٦- حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي دار النشر: دار صادر – بيروت .
٤٧- حجة القراءات: عبد الرحمن بن محمد، أبو زرعة ابن زنجلة : محقق الكتاب ومعلق حواشيه: سعيد الأفغاني الناشر: دار الرسالة،

٤٨- الحجة للقراء السبعة: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي :تحقيق : بدر الدين قهوجي – بشير جويجابي ،راجعه ودققه: عبد العزيز رباح – أحمد يوسف الدقاق ط: دار المأمون للتراث – دمشق / بيروت : الثانية، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م .

٤٩- الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية:. د/ عز الدين على السيد : ، ط دار أقرأ، الأولى ، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

٥٠- الحماسة البصرية: لعلي بن أبي الفرج بن الحسن، أبو الحسن البصري – تحقيق : مختار الدين أحمد ،ط : عالم الكتب – بيروت.

٥١- الحماسة المغربية– مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب : أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي :١٣٤٩/٢ تحقيق : محمد رضوان الداية ط: دار الفكر المعاصر بيروت: الأولى، ١٩٩١م

٥٢- حياة الحيوان الكبرى: محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء ط: دار الكتب العلمية، بيروت الثانية ١٤٢٤ هـ.

٥٣- الخصائص لابن جني ط:الهيئة المصرية العامة للكتاب: الرابعة .

٥٤- خصائص التراكيب " دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني " لشيخنا الدكتور – محمد محمد أبو موسى : ، طبعة : مكتبة وهبة – العاشرة – ١٤٣٨هـ ، ٢٠١٧م.

٥٥- درة التنزيل وغرة التأويل: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي – دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين– الناشر: جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرة– الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

٥٦- الدر الفريد وبيت القصيد لمحمد بن أيدمر المستعصمي المحقق: د/ كامل سلمان الجبوري ط : دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان-: الأولى، ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥ م.
٥٧- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون – أبو العباس، شهاب الدين، أحمد ابن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي – المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط– الناشر: دار القلم، دمشق.
٥٨- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب– : محمد الأمين الجكني الشنقيطي ط: مكتبة ابن تيمية – القاهرة: الأولى١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.
٥٩- دلالات التراكيب د / محمد محمد أبو موسى ، القسم الثاني: طبعة : مكتبة وهبة .
٦٠- ديوان ذي الرمة – شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب– أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي– المحقق: عبد القدوس أبو صالح– الناشر: مؤسسة الإيمان جدة– الطبعة: الأولى، ١٩٨٢ م – ١٤٠٢ هـ
٦١- روح البيان : إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء ، طبعة : دار الفكر – بيروت٠
٦٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي – تحقيق: علي عبد الباري عطية ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت : الأولى، ١٤١٥ هـ
٦٣- السبعة في القراءات: أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي – تحقيق: شوقي ضيف : دار المعارف – مصر: الثانية، ١٤٠٠هـ .

٦٤- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير – شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي – الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة – ١٢٨٥ هـ .

٦٥- شرح ديوان جرير– محمد إسماعيل الصاوي – مكتبة دار الثقافة العربية

٦٦- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم : نشوان بن سعيد الحميرى اليمني – المحقق: د حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د يوسف محمد عبد الله ط: دار الفكر المعاصر بيروت – لبنان: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.

٦٧- صحيح البخاري المسمى : الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي– المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر– ط: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ .

٦٨- صحيح مسلم : المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري : المحقق:محمد فؤاد عبد الباقي– ط:دار إحياء التراث العربي– بيروت.

٦٩- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلويّ – طبعة : المكتبة العنصرية – بيروت: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٧٠- العجاب في بيان الأسباب – أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني– المحقق: عبد الحكيم محمد الأنيس– الناشر: دار ابن الجوزي.

٧١- العظمة – أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني – المحقق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري– الناشر: دار العاصمة – الرياض– الطبعة: الأولى، ١٤٠٨، .

٧٢- العنوان في القراءات السبع : أبو طاهر إسماعيل بن خلف بن سعيد المقرئ الأنصاري السرقسطي تحقيق: د/ زهير زاهد – د/ خليل العطية: عالم الكتب، بيروت : ١٤٠٥هـ .

٧٣- عيون الأخبار :ابن قتيبة الدينوري طبعة : دار الكتب العلمية –بيروت : ١٤١٨ هـ.

٧٤- فتحُ البيان في مقاصد القرآن – أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي ، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري– الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا بَيروت١٤١٢ هـ. ١٩٩٢ م.

٧٥- الفصل والوصل في القرآن الكريم – منير سلطان الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية– الطبعة: الثانية.

٧٦- الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية – نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان ط: دار ركابي للنشر الغورية، مصر الأولى، ١٤١٩ هـ . ١٩٩ م.

٧٧- الكامل في اللغة والأدب: محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس – المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط: دار الفكر العربي – القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ .

٧٨- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري : حققه وضبط نصه دكتور/ مفيد قميحة ، طبعة: دار الكتب العلمية – بيروت،

٧٩- الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد- المنتجب الهمذاني : تحقيق : محمد نظام الدين الفتيح- الناشر: دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة - الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

٨٠- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ،: أبو القاسم محمود بن عمرو ، الزمخشري جار الله طبعة : دار الكتاب العربي بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.

٨١- لسان العرب جمال الدين ابن منظور الإفريقى الناشر: دار صادر – بيروت: الثالثة - ١٤١٤ هـ .

٨٢- لطائف الإشارات = تفسير القشيري : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري - المحقق: إبراهيم البسيوني- الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر- الطبعة: الثالثة

٨٣- اللباب في علوم الكتاب : أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، ط : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان : الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م٠

٨٤- اللمحة في شرح الملحة: أبو عبد الله، شمس الدين، المعروف بابن الصائغ تحقيق: إبراهيم بن سالم الصاعدي ط: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية : الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م٠

٨٥- المبسوط في القراءات العشر - أحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوريّ، أبو بكر : ، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي - الناشر: مجمع اللغة العربية – دمشق- عام النشر: ١٩٨١ م.

٨٦- متْنُ «طَيِّبَةِ النَّشْرِ» فِي الْقِرَاءَاتِ الْعَشْرِ- ابن الجزري، - المحقق: محمد تميم الزغبي- الناشر: دار الهدى، جدة - الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
٨٧- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، تحقيق : أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، ط: دار نهضة مصر القاهرة.
٨٨- مجمع الأمثال للميداني: - تحقق محمد محي الدين عبد الحميد ط : مصطفى البابي الحلبي ، مصر.
٨٩- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها : أبو الفتح عثمان بن جني:وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م .
٩٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي - تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت: الأولى - ١٤٢٢ هـ.
٩١- مختصر في قواعد التفسير خالد بن عثمان السبت دار ابن القيم -دار ابن عفان الأولى ١٤٢٦هـ.
٩٢- مدارك التنزيل وحقائق التأويل- تفسير النسفي - أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي - حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي- راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو- ط: دار الكلم الطيب، بيروت الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
٩٣- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد- محمد بن عمر نووي الجاوي البنتني - المحقق: محمد أمين الصناوي - دار الكتب العلمية - بيروت- الأولى - ١٤١٧ هـ

٩٤- مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار تحقيق :عادل بن سعد ط: مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة : الأولى، بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م.

٩٥- المطول: سعد الدين التفتازاني طبعة : أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

٩٦- معالم التنزيل في تفسير القرآن– تفسير البغوي: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي – حققه :محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش ،ط: دار طيبة للنشر الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م .

٩٧- معاني القراءات : محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور الأزهري – طبعة : مركز البحوث في كلية الآداب – جامعة الملك سعود المملكة العربية السعودية: الأولى، ١٤١٢هـ– ١٩٩١ م.

٩٨- معترك الأقران في إعجاز القرآن،: جلال الدين السيوطي ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م٠

٩٩- معجم متن اللغة – : أحمد رضا الناشر: دار مكتبة الحياة – بيروت عام النشر: ١٣٨٠ هـ.

١٠٠- مفتاح العلوم : يوسف بن أبي بكر السكاكي: ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور،ط: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان : الثانية، ١٤٠٧هـ١٩٨٧م .

١٠١- مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني: محمد بن أبي المحاسن محمود بن أبي شجاع أحمد الكرماني، أبو العلاء الحنفي – دراسة وتحقيق: عبد الكريم مصطفى مدلج تقديم: الدكتور محسن عبد الحميد ،ط: دار ابن حزم بيروت – لبنان : الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م

١٠٢- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر فخرالدين الرازي– طبعة : دار إحياء التراث العربي – بيروت: الثالثة – ١٤٢٠هـ.

١٠٣- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل– أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي– وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي– الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٠٤- المنار في علوم القرآن مع مدخل في أصول التفسير ومصادره – الدكتور محمد علي الحسن – قدم له: الدكتور محمد عجاج الخطيب – مؤسسة الرسالة – بيروت– الأولى، ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م.

١٠٥- من بلاغة القرآن : أحمد أحمد عبد الله البيلي – الناشر: نهضة مصر – القاهرة– عام النشر: ٢٠٠٥.

١٠٦- منجد المقرئين ومرشد الطالبين : شمس الدين أبو الخير الجزري: طبعة: دار الكتب العلمية – الأولى : ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

١٠٧- منهج الإمام الطاهر بن عاشور في التفسير– نبيل أحمد صقر – الناشر: الدار المصرية القاهرة– الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

١٠٨- النشر في القراءات العشر– شمس الدين أبو الخير ابن الجزري،– المحقق: علي محمد الضباع – المطبعة: التجارية الكبرى.

١٠٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – إبراهيم بن عمر بن حسن بن أبي بكر البقاعي : –طبعة : دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

١١٠- وظيفة الصورة الفنية في القرآن: عبد السلام أحمد الراغب طبعة : فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.